

انتحال الشعر الجاهلي

**بين المدِّ الإنكاريِّ المسفِّمِ ،
والنَّصديِّ الأزهرِيِّ الموجِّهِ**

عرض ، وتحليل ، ونقد :

أ.د / حسام محمد علم

أستاذ الأدب العربي ، والنقد الأدبي

الحمدُ لله استفتاحاً بحمده ، واستنجاحاً بذكره ، وصلاةً وسلاماً
على نبيه (ﷺ) ، وآله وصحبه أجمعين .. ،

مهما يكن من أمرٍ بعدُ : فلقد اتسعت مداراتُ الحديثِ حول الانتحالِ
اتساعاً مطرداً؛ كان من شأنه أنه أزاحها كثيراً عن مركزيتها ، وتوجهها
اليقينيِّ وسطَ ركامِ جارفِ الاتجاهاتِ ، ساحقِ الانشدادِ فأفقدَها
سميتها : الفنيَّ والفكريَّ ، وراح يذهبُ بالحدِّ الفاصلِ بينَ ما هو عقلائيُّ
بمنجزاته الفائقة ، وغير عقلائيِّ بتراكماته الساذكة؛ لتتساح المسألةُ
متماهيةً ، بينَ هيمنةِ الواقعِ الحضاريِّ بكلِّ خواصِّه الموافقةِ والمفارقةِ ،
وأرجحةِ الطرحِ المعرفيِّ بكلِّ إشاراتِهِ الذهنيةِ والعرفانيةِ والقيميةِ الدافقةِ
لتتحققَ ثقافةُ الشرخِ التي حاولنا رأبَ صدعها ...؛ لكنَّ غيابَ الضوابطِ
المعرفيةِ ، وافتقارنا إلى النظرياتِ المعياريةِ الحاكمةِ في قضايا تراثنا لا
التراثيةِ ، لا ترما الأخلاقيِّ الذي خصمَ طويلاً من حسابِ الثقافةِ والفنِّ
في عموميتِهما ، وعزفَ عن قبولِهما ، وكذلك العاملُ المسببُ ، وكيفيةِ
تحليلهِ وتعليلهِ .. ؛ كلُّ هذا قد أبعدنا عن جادةِ الصوابِ ...، وعجباً على
ما صرنا إليه .

على أن أغلبَ الظنِّ يدفعني إلى حتميةِ القولِ بأن ما تقاربَ من الآراءِ
إنما كان صادراً عن نقادٍ تمتعوا - في بجدَةِ الأمرِ - بالتجردِ والحيادِ
والموضوعيةِ سبيلاً لاستكناه ماهيةِ القضيةِ ، وكشفِ غوامضها، وفكِّ
طلاسمها أو معضلاتها الفكريةِ ، وكذلك أبعادها النفسيةِ حتَّى يستبينَ
الأمرُ.

وما تباعدَ منها فإنه راجعٌ في اعتقادي لأحدِ الأمرين ، أو كليهما
معاً :

الأول - إما أن تكون بعض النظرات الاستشرافية التي ركبت مطية الأهواء غير مزودة ب زاد المعرفة اليقينية ؛ لتتية في مفازة الحدس ، وفدافد المباهاة الجوفاء بعد أن امتاحات الكثير من حقدتها العنصريّ الدفين من مستنقع أسموه صراع الحضارات على ترثنا الذي اعترته خطوبٌ وصروفٌ بغية ما تتغياهُ هو صرف التراث سلطته ؛ بسلبه رسالته ، ووظيفته التنويرَ الحضارية ؛ ولتحيله إلى مسخٍ مشوه للنيل منه بشكلٍ أو بآخر ... !!

الآخر - إما أن يكون اجتزاء النظرة الاستغرابية المتدثرة بلباس المعرفة وانحسارها قد أفضى بها إلى إصدار أحكام مُبتسرة غابت عنها الموضوعية ، سواء أكان هذا ناشئاً عن سوء فهم ، أم أكان صادراً عن سوء تفسير ...

وسواء أكان هذا أم ذاك ، فإنه ينصرف جملةً وتفصيلاً إلى فساد المنطق الذي راح يحقرُ أعمالنا الشعرية التراثية ، ويسفه عقول السابقين بعد إخفاقهما في إخفاء ملامحهما الفكرية والنفسية الغائمة حتى صار ترأثنا مهدداً بالافتلاع والسحق ، والسبب أنه واقع بين مطرقة تلك الحفنة من المستغربين ، وسندان أمثالهم من المستشرقين ممن تعاوروا على هذه القضية ليحشرونا بين ركام الجزئيات وشتات الظواهر ...

على أن شيئاً لافتاً يجدر بنا ذكره وهو إن أصحاب هذه الدعاوى الهدامة أو الأصوات النشاذ تلك المتنافرة التي دأبت على تشويه حقيقة تراثنا أو مسخه ، ووسمه بسمات ملتوية - إنما يريدون أن يسلبونا تراثنا التي لم تصهرج قنواته بعد ؛ ليحيلونا إلى أمة جثة هامة لا تدب فيها حياة ولا حركة ، ولا خلاص لنا إلا الموت ، لأنهم يدركون أن الأمم بماضيها قبل أن تكون بحاضرها ... ، من هذا الماضي كان وجودها ،

وإليه يكون بقاؤها ، وبه تعيش قوية بكيانها ، ولا خير في تراث إلا إذا أخذ وأعطى ؛ لتتحقق التفاعلية أو التمازجية بين الماضي والحاضر ، إمضاء وإنكاء للمستقبل الزاهر.

وعلى كل فإن تلك الظاهرة أو القضية الأخلاقية التي تتكئ على بعض من الفروض الظنية أو التخمينية قد يتعذر أن يثبت بعضها بصورة علمية دقيقة ضد المجني عليه الشعر الجاهلي مفادها : " أنه ليس لأصحابه وإنما نظمة آخرون ، ونسبوه إلى شعراء جاهلين وإسلاميين علماً بأن هذه الادعاءات الجوفاء - التي لا تقف على أقدامها - كان من شأنها أن نثرت الشك في هذا التراث حتى بات لحمتها وسداها ، وليس معنى كلامنا أن ننفي وجود الظاهرة ؛ وإنما نعني أن هناك مبالغات مجوجة شككت جدلية المد الإقراري ، والجزر الإنكاري لتصبح في الوجود الاعتباري ، وهذه ثالثة الأثافي .. !!

وبما أن قضية الشعر الجاهلي المنتحل تمثل جدلاً واسعاً له أهميته في أوساطنا النقدية من حيث صلته بتوثيق النصوص ، وتاريخ التطور الفني ؛ لذا فإته الحكم على ما توفر لدينا من هذا الشعر ليس الكلمة الفاصلة ، إذ أنه لا يزال تراثنا الشعري موزعاً بين مكتبات العالم سواء أكان مخطوطاً أم مطبوعاً ، وآية ذلك أن هناك ستين ، وقيل ثمانين ديواناً من دواوين القبائل العربية لم يحقق الكثير منها إلى الآن..، وعجباً على ما صرنا إليه .

إننا لا نعدو الواقع حين نقول : إنها ظاهرة أدبية شأنها شأن الكثير من الظواهر العلمية الأخرى ، هذه الظاهرة لا يختص بها الأدب دون غيره من العلوم والمعارف ، ولا تختص بها جماعة من الناس أو أمة من الأمم دون أخرى ، فكما عرفت أمتنا العربية فقد عرفت الأمم

الأخرى التي كان لها موروثة إنسانيّ ، وذلك هو حال التراث في كلّ أمم الأرض قد تعرض للشك والاثهام، كما رُمى الكثير منه بالاختلاق والانتحال؛ إمّا عن سوء فهم، وإمّا عن سوء تفسير.

وهنا آن لنا أن نتساءل فنقول : هل اقتصر الاتهام على أدبنا الجاهليّ ذاك التراث الخالد والمقياس الأعلى ، والنموذج الأصيل الذي لم ينل من الوسائل الدقيقة للمحافظة عليه ما كفّل له البقاء سليماً من الشوائب ، منذ وجوده حيث كان يُلَقَى ، ويُشَدُّ ، ويُحَفَظُ ، ويروى عن طريق المشافهة ولم يدون إلا بعد زمن طويل ...!!؟

بالطبع لا ... ، فكما عرفها الأدب الجاهليّ عرفها الأدب الإسلاميّ حيث وضع المسلمون شعراً ، ونسبوه لأبي بكر الصديق حتى لقد روي الزهريّ عن عروة عن عائشة أنها قالت : كذب من أخبركم أن أبا بكر قال بيت شعر في الإسلام .. !!

عوداً على بدء فلقد عرفها أدبنا الأمويّ ، وكذلك العباسيّ ، وكفي ما جاء إلينا عن المتنبيّ، وسرقاته الشعرية ، والقدرح في شاعريته ، ثم عرفها أدبنا الحديث ، وكفي ما قيل عن شوقي وسرقاته الشعرية من المتنبيّ ، وتآلف عليها - تحديداً - حاضرنّا الذي نما فيه على الرغم من تعدد وتطور وسائل الحضارة الحديثة التي كانت قميئة أن تبرئ نتاجنا الأدبيّ من هذه الظواهر لو كان هناك سبيل للخلاص منها ...

وهل نغفل ما نحن عليه الآن ، حين وجدنا بعض الباحثين والدارسين قد استشرى فيهم الانتحال حتى عدّنا نسمع ونقرأ عن السرقات العلمية ، وبخاصة المخترعات والابتكارات ، ثم نجد من يبيع الأخيرة بأرخص الأسعار في سوق أوجدوه وروّجوا فيه البضاعة

لأنفسهم ، إنه سوق العلم إلى غير ذلك من الجرائم التي نراها ترتكب اليوم والغد، وذلك في عصرنا الحالي على الرغم مما يشهده عصرنا - ، عصر الطباعة والاتصال الثقافي والكمبيوتر والإنترنت والمعلوماتية والعولمة ، هذا ولم يحتشد لها منافع أو محام ؛ ليدود عنها ، أو ليدفع عن نفسه تهمة التورط فيها؛ وإنما نقع عليها حاصلة ماثلة في واقعنا بشكل دراماتيكي ... !!

لكن ابن سلام الجهمي استطاع - بنباهة النقاد الفذ ، وتوقد البصير المستنير- أن يحصي القضية عرضاً ونقداً ، حين عبد للنقاد الطريق المؤدية إلى رد المنحول ، ودرء المغلوط متصدياً لكل ما سبق في ملاحظات ذكية قد ترقى لمرحلة التأسيس والمراجعة بعبارتيه الشهيرتين .

وعلى كل فإن البحث بعد أن نمهد له بـ " الانتحال في مفهوم ابن سلام بين الاعتدال وعدم مجاوزة الاحتمال " يقع في مبحثين :

الأول " القضية في الأيديولوجية الاستشراقية بمناظير أزرية " : وفيه أخضعنا القضية الموشوجة بمزاجها ومناخاتها الاستشراقية للنظرة الأزرية ، محاولة منا أن نضع الأمور في نصابها بالانصاف لا الانحراف عن نمط واختيار في مسائل الخلاف .. ، فرحنا نتبع خط سير هذه الأفكار السديمية التي تشكك في شعرنا الجاهلي ، تلك الصادرة عن أهواء وطباع وثقافات لا تتفق وموازن الفكر الأزرية السليم ، بدءاً من نولدكه ، ومروراً بـ آلوارد ، وانتهاءً بمرجيلوث لنرسم خارطة معرفية توقفنا على الأبعاد المعرفية والعلمية والنفسية للقضية في مفهومها الغربي وانعكاساتها على الأزرية العربي الجذر المتطاوّل مع الزمن ؛ ليتأكد لنا أن جهازه المعرفي ليس عاجزاً أو قاصراً ؛ بل قادراً على

الاتصال والإيغال ، وأن قدراته الخلاقة - باعتباره حصناً حصيناً ، ذا تاريخ عريق فكرياً وعلمياً وثقافياً وإنسانياً .. ، هذه القدرات ترفضها أو تسندھا مجمل ثقافات ، وظلال وخلفيات معرفية وحضارية وإنسانية عميقة ، مما يجعل تعاملها مستقلاً استقلال التفاعل لا العزلة .

الآخر: وهو " القضية بين جدلية المدّ الإقاربي بها ، والجزر الإنكاري الأزهري لها" - حيث مثل الجانب الأول د. طه حسين بعوالمه الذهنية والفكرية للقضية الذي أخفق في أن يتجنب الإيغال في مسارها المعقدة ، ومسالكها المتعرجة أو المتشعبة ؛ لتكشف عما يعتمدها من خلل ؛ فقدم هامشيات نقدية غير مقننة ، بينما مثل الآخر مصطفى صادق الرافعي - الذي وهبه الله عقلاً كبيراً ، إذ لم يعيش على هامش عصره فيصبح هملاً أو سدى ؛ بل ألقى بنفسه في الخضم الواسع من الآداب والثقافات والديانات التي تفاعلت منصهرة في صهاريج الصراعات - فجاء رده على طه حسين مشكلاً انخراطاً كلياً في النسق الثقافي والأدبي من جانب .. ، ومدافعاً بوعي فكري متجرد من التبعية الذهنية الغربية على الجانب الآخر ...؛

وكذلك محمد الخضر حسين ، ومحمد أحمد الغمراوي ، وغيرهما من علماء الأزهر الذين نقلوا القضية من وهم الاحتمال إلى حقيقة التواصل الفعال مع تراثنا إنصافاً ، وإحقاقاً للحق ؛ ليمثل تيارهم عودة النزعات الاستغرابية المضطربة والتهيج المعقد إلى حالة الاتزان .
وغني عن البيان التدليل على أن آراءهم -على هذا النحو- صرخة في ضمير الإنسانية ضد الشعوبية التي عانت كثيراً من التبعية الذهنية والانتكالية والهمود والجمود والانهازمية والانسلابية ،

وبعدُ : فلقد كانَ هدفنا - من هذه الدراسة - الكشفُ عن العوالمِ
المخبوءةِ لبعضِ المستشرقينَ ، ومن اتساقِ وراءهم من المستغربينَ ،
وكيفَ تصدى إليهم الأزهريون قارعين الحجةَ بالحجةِ ، والبرهانَ
بالبرهانِ حتى يستبينَ الأمرُ
واللهُ نسالُ أن يحوطَ تراثنا ، ويرعاه ويحرسه ، من كيدِ الكائدين ،
وعبثِ الناقمين....

واللهُ الموفق

أ.و. حسام محمد علم

التمهيد : الانتحال في مفهوم ابن سلام بين الاعتدال ،

وعلم مجاوزة الاحتمال

بادئ ذي بدء نقول :- إنه لم يغب عن بال القدماء - من علماء اللغة والأدب ، وبخاصة رجال الطبقتين : الأولى والثانية (١) - الحديث عن الانتحال ، حيث وقفوا عند كثير من النصوص المشكوك فيها ، فنَبَّهوا عليها ، ورفضوها (٢).

وهذا هو أبو عمرو بن العلاء الذي شك في شعر ذي الأصبع العدوانى حين كان يرثى قومه - في ضاديته - ، فأشار إلى أن الكثير من أبياتها منحول (٣)

لكن ابن سلام الجهمي استطاع - بنباهة النقاد الفذ ، وتوقد البصير المستنير - أن يحصي القضية عرضاً ونقداً ، حين عبّد - للنقاد - الطريق المؤدية إلى رد المنحول ، ودرء المغلوط ، متصدياً لكل ما سبق ، في ملاحظات ذكية قد ترقى لمرحلة التأسيس والمراجعة بعباريته الشهيرتين :

(١) لعل الأصمعي ، والضبي ، وابن هشام ، والأصفهاني ، وأبا عبيدة كانوا من أولئك الذين تصدوا لزيف الرواة ؛ لينفوا عنه كل دخيل .

(٢) راجع : مقولة أبي عمرو بن العلاء الذي شك في شعر ذي الأصبع العدوانى حين كان يرثى قومه ، فأشار إلى أن الكثير من هذا الشعر منحول ... ، ثم عاصر بن عبد الملك ، وابن عبد الله ، وهما من طبقة أبي عمرو بن العلاء علامتان في النسب ، راويتان للشعر حيث روى عنهما أبو عبيدة والأصمعي أخباراً وشعراً - فإتھما ينكران ما أضيف إلى قصيدة الحارث بن عباد ، ولم يصححا منها غير الأبيات الثلاثة ، وهناك أبو عمرو الشيباني والأصمعي فإتھما أشارا إلى زائف منحول في الشعر ... ، راجع : مصادر الشعر الجاهلي ، وقيمتها التاريخية لناصر الأسد ص ٣٢٣

(٣) راجع : الاغاني ج ٣ ص ١٠٦ .

الأولى : "وفي الشعرِ مصنوعٌ ، مفتعلٌ ، موضوعٌ كثيرٌ لا خيرَ فيه... وقد تداوله قومٌ من كتابِ إلى كتابٍ ، لم يأخذوه عن أهلِ الباديةِ ، ولم يعرضوه على العلماءِ ، وليس لأحدٍ - إذا أجمع أهلُ العلمِ ، والروايةِ الصحيحةِ على إبطالِ شيءٍ منه - أن يقبلَ من صحيفةٍ ، ولا يروى من صُحُفِي" (١).

الأخرى : " فلما راجعتِ العربُ روايةَ الشعرِ ، وذكُرَ أيامها ، ومآثرها ، استقلَّ بعضُ العشائرِ شعرَ شعرائهم ، وما ذهبَ من ذكُرِ وقائعهم ، وكان قومٌ قلَّتْ وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائعُ والأشعارُ ؛ فقالوا على ألسنةِ شعرائهم مالا يقولونه ، ثم كانت الرواةُ بعدُ ذلك فزادوا في الأشعارِ التي قيلت (٢) .

على أن أغلبَ الظنِّ يدفعني إلى حتميةِ القولِ بأن الشعرَ المصنوعَ ليس بالكثرةِ حيثُ يضطربُ الباحثون والدارسون في معرفتهم ، وذلك القليلُ النادرُ لا يسترعي الانتباهَ ، برفضِ كلِّ الشعرِ ، وعذهُ منحولاً.

عوداً على بدءٍ فإن الناظرَ - بعينِ التأملِ والنقدِ - في النصين السابقين - يستطيعُ أن يعزي المنحولَ لثلاثةِ عواملٍ :-

- الأول : بيني ورائي ، إذ يتمثلُ في عاملِ القبائلِ ، بكلِّ مَخلفاته العصبيةِ ذاتِ الصبغةِ القاتمةِ ، وتراكُماته ذاتِ الظرفيةِ المحايثةِ .
- الثاني : فكريُّ عقديُّ ، إذ يتمثلُ في الرواةِ الوضاعين .
- الثالث : صراعيٌّ سياسيٌّ بينَ المسلمين ،

(١) انظر : طبقات فحول الشعراء " السفر الأول ، بقراءة وشرح محمود محمد شاكر ص -

٤ دار المدني بجدة ، سنة ١٩٨٠

(٢) انظر : المصدر نفسه ص ٤٦

فبالرجوع إلى - عامل القبائل وعصبيتهم فإن ابن سلام -
بجاهزية فطرية ، وتهينو واستعداد - للتعامل مع أي وجهة نظر إجرائية
- يرى أن بعض العشائر أو القبائل كانت تتزيد في أشعارها ، لتتزيد في
مناقبتها .

إننا إذا سلمنا جدلاً بالقول الشمولي - أي عموم القبائل - فإنه
سيتعارض حتماً - مع ما جاء به الجاحظ ، وذلك في الحديث عن حظ
القبائل من الشعر ، إذ يرى " أن القبائل لم يكن حظها - من الشعر -
واحداً ، وإنما تفاوتت القبائل في شعرها وشعرائها .. ، ونحن نشايغ -
بكل الاطمئنان - ما جاء به الجاحظ ؛ لأننا لو نظرنا إلى قبيلة بني حنيفة
البكرية - على سبيل المثال لا الحصر - فسنرى أنها ستكون من أولى
القبائل التي سعت لتتزيد في شعرها ، وذلك للتتزيد في مناقبتها ، لكننا لم
نجد فيها إلا شعراء قليلين أو قلة ، قال الواحد منهم البيتين ، أو الثلاثة
أمثال: عمرو بن الزراع الحنفي ، وحريث الحنفي (١) ، وعمرو بن العزى
الحنفي ، وعمرو بن شمر الحنفي بن جابر .. ، ناهيك عما أخبرتنا به
كتب الأدب أنهم - على الرغم من كثرة عددهم ، وشدة بأسهم وكثرة
وقائعهم ، وحسد العرب لهم ، وتخوفهم وسط أعدائهم و .. ، - لم نر
قبيلة أقل منهم شعراً (٢) .

أيضاً قبائل قضاعة ، وجرم ، ونهد ، وكنب ، وجهينة ، وبلي ،
وبهراء وتنوخ .. فإنه لم يصل إلينا منها إلا شذرات شعرية ، لا نستطيع
القول .. ، عنها أنها كل ما وصل إلينا عنهم .

١ (راجع : أشعار بكر في الجاهلية وصدر الإسلام " رسالة دكتوراه للدكتور حسام
محمد علم ص ٤٥٥ ، ٤٥٠ لسنة ١٩٩٥ م بجامعة الزقازيق .

٢ (انظر : الحيوان ج ٤ ص ٢١٣

إننا إن خلنا في ذلك فنظرة إلى ما جاء عن أبي عبيدة أنه قال " كان قراؤ بن حنش من شعراء غطفان ، وكان جيد الشعر ، قليله ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره ، فتأخذه وتدعيه " (١)

غاية أو ملاك الأمر فيما سبق نقول :- إنه طالما أننا لا نضع بين أيدينا كل أشعار القبائل العربية ، أي لم نمحص أو ننقح كل ما وصل إلينا ؛ فإن آراءنا لا تزال مثار اختلاف ، وبحث ، وفرض ، أو حدس قائم في منشأ الانتحال والتزييف والزيادة في الشعر الجاهلي بدءاً.

ما سبق من حديث كان عن عامل تزايد القبائل ، أمّا عن العامل الثاني - الرواة - فإن ابن سلام قسمهم صنفين كانا يرويان منتحلاً كثيراً...

الأول: كان يجيد نظم الشعر وصوغه ، ثم يضيف ما ينظمه إلى الجاهلية ، ومن أمثال هذا الصنف حماد الرواية ، وخلف الأحمر .

أما الآخر: فلم يكن لديه موهبة الذوق ؛ لذا فإنه لا يحسن نظم الشعر ، ولا السير على غرار الجاهلي ، ويظن ابن سلام أن منهم رواة الأخبار والسير والملاحم ...، إننا لو فرضنا فرضاً ظنياً قائماً صحة ما جاء به ابن سلام فإن هناك سؤالاً يقف على ظلال مقولته وهو: هل وجد في كل قبيلة هذان الصنفان من الرواة أم لا ؟

إنه لا يفوت القارئ المنصف أن الصنف الأول نادراً ما كان موجوداً ، وإن وجد فستكون له بواعثه النفسية عند السابقين ، وأهمها العصبية التي كانت موجودة بين مدرستي البصرة والكوفة ؛ لأنه لو ثبت غير ذلك لوجدنا - لكل قبيلة - نوعين من الشعر مختلفين نظماً

(١) راجع : طبقات فحول الشعراء لابن سلام س ١ ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

وصياغةً وتعبيراً ، ولعل ما يترتبُ على ذلك أننا سنجدُ أنفسنا أمامَ طرائقَ متعددةٍ من الرواياتِ المختلفةِ تلك التي يضيعُ معها الثبوتُ ، والنظرُ التامُ النافذُ ، بل يضيعُ معها الشعرُ الجاهليُّ جملةً وتفصيلاً ، إذ سنفتشُ عن القليلِ المقبولِ في الكثيرِ المنحولِ ، أي نبحتُ عن شعرٍ صحيحٍ في الشعرِ المنحولِ ، وهذه خطورةُ التعددِ والاستقطابِ .

مهما يكنَ من أمرٍ بعدُ : فإتني أرى غيرَ ذلك ؛ لأن ابنَ سلامَ الجمحيَّ حينَ كانَ يحددُ أبعادَ مشكلتهِ راحَ يذكرُ أثرَ ما جدَّ على الحياةِ الجاهليةِ بعدَ أن كانَ الشعرُ في الجاهليةِ عندَ العربِ ديوانَ علمهم ، ومنتهى حكمهم حيثُ جاءَ الإسلامُ ، وشغلتِ الدعوى الإسلاميةُ الحياةَ العربيةَ فتشاغلت عنه العربُ ، وتشاغلوا بالجهادِ ، وغزواتِ الرومِ ، ولهت عن الشعرِ ، وروايته .

إذن فإن مسرحَ الحياةِ العربيةِ نُصبَ في الإسلام - وانشغلَ العربُ المسلمون بالفتوحاتِ الإسلاميةِ ، فلم يكنْ لدى الشاعرِ ، أو الرواي وقتَ للتفكيرِ المستطيلِ ؛ لأن الحياةَ الحربيةَ تكونُ سريعةً ، ومع سرعةِ الحياةِ اليوميةِ تأتي السرعةُ الفنيةُ ، وهنا نجدُ الشعراءَ أمامَ اختبارين : إما أن يتوقفوا ، وإما أن ينظمَ الشاعرُ منهم البيتين أو ثلاثة الأبياتِ بما تقتضيه سرعةُ الحياةِ ، وأثرُها على الفنِّ .

إذن فإن الرواةَ في الإسلام - أعتقدُ - لن يجدوا الوقتَ الذي يسمحُ لهم بقراءةِ مآثرِ أجدادهم ، ليضيفوا إليها منحولاً حتى وإن أضافوا فستكون قليلةً ، لا تعدُّ الكثيرَ الصحيحَ ؛ لأن الحلبةَ آنذاك ليست للقلمِ ، وإنما للسيفِ !

صحيح إنما لا ننكر وجود بعض من الرواة أمثال خلف الأحمر^(١) ، وحماد^(٢) الراوية لا سيما الأخير الذي أعزى إليه ابن سلام القول بأنه أول من جمع أشعار العرب ، وساق أحاديثها ، وكان غير موثوق به ، وكان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد في الأشعار ، وغالباً ما كان يضع الشعر على لسان الشعراء الكبار مدحاً في الأجداد ، وتعلقاً لذوي السلطان من المعاصرين ، وطمعاً في نوال بلال بن أبي بردة^(٣) ، وكذلك محمد بن إسحق الذي أفسد الشعر ، وهجته ، وحمل كل غثاء فيه ، وكان من علماء الناس بالسير ، فنقل الناس عنه الأشعار ، وكان يتعذر منها ، ويقول : لا علم لي بالشعر ، أوتى به فأحمله^(٤) ، ولم يكن ذلك له عذراً ، فكيف في أشعار الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء .

وأما عن العامل الأخير - الصراع السياسي فإنه الواقع بين المسلمين في القرن الأول الهجري ، وما تلاه - حيث دفع العرب إلى بعث العصبية القديمة من مراقدها فعادت مشتعلة ، لا يخمد أوارها . وأخيراً نقول : إن ابن سلام - في كتابه " طبقات في فحول الشعراء " قدم خطاباً معرفياً لقضية الانتحال ، إذ إنه دون تعقيباته على

^(١) ولد خلف سنة ١١٥ هـ ، وتوفي ١٨٠ هـ من أبناء الصفد من فرغاته ، أخذ اللغة عن أبي عمرو بن العلاء ، وأخذ النحو عن عيسى بن عمر النحوي ، وكان عالماً بالأنساب .

^(٢) ولد حماد في الكوفة في عام ٩٥ هـ ، وتوفي ١٥٦ هـ ، وهو ابن سابور ، وشهرته حماد الراوية ، وإليه وحده تتجه كلمة الراوية " إذ أرسلت " من أصل فارسية ، أقل على الشعر والأدب ، ولغات العرب ، كان يتمتع بذاكرة قوية .

^(٣) انظر : دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي ط ص ١٠ ، دار العلم للملايين بيروت ، سنة ١٩٧٩ م

^(٤) انظر : طبقات فحول الشعراء ص ٩

الشعراء الجاهلين فيه ، والكثير من الملاحظات التي تدلُّ على دراسة وتحقيقٍ وتحصيلٍ لتراثنا الأدبيِّ ، وبخاصةٍ تعقيباته على الشعراء الجاهلين ، وكذلك الرواة ، والاعتماد على مَنْ وثقَ به الرواة الذين قاموا بجمع الأدب ، وتدوينه إذ أحاطه هو وأقرانه من القدماء بسياجٍ محكمٍ من التحريِّ والتثبت - وكلُّ هذا يصادقُ على أسبقيةِ بالقضية ، وتفردِه النقديِّ لها .



المبحث الأول : القضية في الأيديولوجية الاستشراقية (١) بمناظير أزهرية :-

بعدُ المستشرقُ نولدكه (٢) أولَ مَنْ وَجَّهَ الأَنْظارَ لهذهِ القضيةِ عام ١٨٦٤ م ، حينَ أشارَ إلى الشكوكِ التي يثيرُها مظهرُ الشعرِ الجاهليِّ ، ثُمَّ خلفه - بعدَ ثماني سنواتٍ - "أهلوارد" الذي تناولَ المسألةَ بضيقِ نظرةٍ ، ومعرفةٍ - قد تبدو لي - قاصرةً حينَ قالَ : "إنَّ القصائدَ المرويةَ غيرَ موثوقٍ بصحتها ، إنَّ من ناحيةِ المؤلفِ ، أو ظروفِ النظمِ ، وترتيبِ الأبياتِ ... ، فمن الواجبِ - إذن - إخضاعُ كلِّ أثرٍ من القرنِ السادسِ ، وأوائلِ السابعِ لفحصٍ دقيقٍ قَبْلَ قبوله" (٣).

هذا ولقد نشرَ دواوينَ الشعراءِ الستةِ الجاهليين - امرئ القيس ، والنابغة ، وزهير ، وطرفة ، وعلقمة ، وعنترة - فتشكَّك في صحةِ الشعرِ الجاهليِّ عامةً ؛ منتهياً إلى أن عدداً قليلاً من قصائدِ هؤلاء الشعراءِ يمكنُ التسليمُ بصحتها ، مع ملاحظةِ أنَّ شكاً لا يزالُ يلزِمُ هذهِ القصائدَ الصحيحةَ في ترتيبها ، وألفاظِ كلِّ منها .

١ (راجع : دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي ص ٨

٢ (راجع : تاريخ الأدب العربي لبلاشير ص ١٣

٣ (الاستشراق : حركة تعني بدراسة شؤون الدولة الشرقية التي يستعمرها الغربيون ، وهي شؤون تتصل بالدين واللغة والأدب والتاريخ والاجتماع والاقتصاد ؛ لأهدافٍ تنصيريةٍ ، ومصالحٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ ، هذا ولقد أنشأت جمعيات علمية توضع فيها الدراسات الخاصة ، منها الجمعية الآسيوية الملكية في لندن ، وأخرى في باريس ، وكل منهما تعني بالأبحاث الشرقية من نشر وتأليف وتحقيق ، ومن أشهر أولئك المستشرقين جويدي صاحب المختصر في اللغة الجنوبية ، وبروكلمان صاحب تاريخ الأدب العربي .

وتابع أو شائع كثير من المستشرقين أمثال موير ، وباسيه ،
وليال (١) ، وبروكلمان ، وهوار (٢) طوال ثلاث قرنٍ سابقين نولدكه
وأهلوارد ، وذلك في موقفهما الحذر من قبول كل ما يزوى من الشعر
الجاهلي .. !

وحيثما يخرج علينا المستشرق الإنجليزي مرجيلوث (٣) ببدعة ، أو
إن شئت فقل : بفرية - بعد أن تجاوز حد المبالغة والإسراف بكثير ؛ ليبعد
بالقضية عن مفهومها ومنطوقها مفادها :- أن الشعر الجاهلي كله منحول
بعد الإسلام ، وأضيفت إليه أسماء جاهلية .. ،

ويحاول الشيخ محمد الخضر حسين جاهداً أن يوقف أو يحدد
هذه الضجة في مهدها حين تصدى إليه بتشكيكه في أمر حماد ، وخلف
الأحمر بقول المستشرق (جيمس ليال في مقدمة ترجمة الجزء الثاني
من المفضليات ١٩١٨ م :-

إنه لمن الخطأ العظيم أن نعدّ هذين الرجلين - حماداً وخلفاً -
النوذجين المثاليين للرواة المحترفين الذين كانوا يروون أشعار القبائل ،

(١) لقد لوحظ عند ليال أن هناك شكاً متنامياً في قيمة المعطيات الإخبارية ، ومن ثم
في أهمية النصوص المعترف بجاهليتها.

(٢) هو الذي كتب مقالة بعنوان "مصدر جديد للقرآن " كما اهتم الدكتور ناصر الدين
الأسد بمقالة ديفيد صمويل مرجيلوث فلخصها ، وقد خصص لها قسماً في كتابه
"مصادر الشعر الجاهلي" ص ٣٥٣ - ٣٥٧

(٣) ولد عام ١٨٥٨ ، وعاش اثنين وثلاثين عاماً ، إذ توفي في عام ١٩٤٠ م ، درس
في الآداب الكلاسيكية واليونانية واللاتينية ، ثم انتقل إلى دراسة اللغات السامية ؛ من
أهم أعماله إظهار ترجمة متى بن يونس لكتاب " فن الشعر لأرسطو " ثم توالى بحوثه
بعد تعيينه بالجامعة حيث قنم أوراق البردي العربية ، كما قدم جزءاً من تفسير
البيضاوي باللغة الإنجليزية ، كما ترجم جزءاً من تجارب الأمم لابن مسكويه ، ثم نشر
رسائل أبي العلاء المعري عام ١٨٩٨ م ، ومعجم الأنبياء لياقوت الحموي ، وله عدد
كبير من التحقيقات والتراجم والبحث التي اتسمت بالتعصب المقيت ، والبعد عن المنهج
العلمي .

فقد كانا كلاهما من أصل فارسي ، أمّا رواة القبائل فكانوا من العرب
يختارهم الشعراء ؛ ليكونوا الوسيلة التي تحفظ شعرهم ، وتخلده في
صدور القبيلة والأمة العربية بعامة ، وكان من هؤلاء أن أخذ الرواة
الجامعون في القرنين الأول ، والثاني الهجريين ما جمعوا من شعر (١)
.. ، وكان كافياً ما أورده الشيخ محمد الخضر حسين ليغضّ ذاك
المرجليوث الطرف ، ويعود إلى رشده ؛ لكن شيئاً من هذا القبيل لم
يحدث حيث إنه تصفّ الفكر والواقع بسبب شكّة المتزايد ؛ فراح يعدّ
مرافعة جدلية بعنوان : " أصول الشعر العربي " وقد دفعه تعصبه ضدّ
الإسلام إلى التجاوز ، والبعد عن المنهج العلمي الصحيح ، وهي - بلا
شك - مقالة صدرت عام ١٩٢٥ م في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ،
وكانت تهدف إلى إثارة الشك في القرآن عن طريق الشعر الجاهلي ؛ مما
أصاب علماء العرب بالدهشة على الرغم من حذف الدكتور طه حسين
أكثر الأقوال إثارة....!

مهما يكن من أمر فقد خرج لنا فيها بنوعين : من الأدلة بعد أن
بني عليهما شكّة الأولى خارجية : وتتمثل في كلّ ما يتصل بمفهوم الفنّ
الشعري ، وروايته ووظيفة الشعراء في المجتمع ، والأخرى داخلية :
وتتمثل في الملاحظات التي تدور حول لغة الشعر ومعانيه ،
وموضوعاته ، وذلك في محاولة لإثبات بطلان الشعر الجاهلي حين رجّح
أن يكون هذا الشعر الذي نقرؤه على أنه شعر جاهليّ - إذ جُمع ونُسب
إلى الجاهليين - إنما نُظِم في العصور الإسلامية ، ثم نحله هؤلاء
الواضعون المزيفون .

(١) راجع : مقدمة : المفضليات ج ٢ ص ٢٠

هذا وبإمكاننا أن نلخصها في ثلاث نقاط هي :

- إنكار وجود الشعر الجاهلي .
- إنكار أن يكون الشعر الجاهلي حُفِظَ بالرواية .. !
- إنكار ما جاء عن ابتداء الشعر الجاهلي ، ونشأته ولغته .. !

على كل حال فإن إنكار الشعر الجاهلي - جملة - هو زعم ببطله المنطق ، ويمقتّه العقل ، لأنه ليس هناك ما يبرره من الناحيتين : الموضوعية والفنية ، هذا من جانب .

على الآخر : فإن الشعراء موجودون قبل الإسلام بدليل أفراد سورة من القرآن باسمهم وصفاتهم - على حدّ تعبيره هو - إذ استدّل بقول الله تعالى " وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ " الشعراء الآيات (٢٢٤ : ٢٢٧)

والغريب في الأمر أنه أشار إلى ما سبق ربما على سبيل الخطرة ، لكنه قد يأخذنا العجب العجيب - إن لم تساورنا الأشجان - حين يضطرب الأمر عليه فيثبت وينفي معاً وجود الشعراء ؛ ربما لأنه نصراني لا يؤمن بكتاب الله ، ولا يفهم ما به دليل خطئه الواضح بين الكاهن والمجنون والشاعر ، وفهمه الساذج للشاعر - استناداً للقرآن الكريم - بالافاك الأثيم .. ، والاستثناء واضح في الآية السابقة ، هذا فضلاً عن مقاصده المبطنة التي يرمي إليها "مرجليوث" ، وهي إيجاد علاقة بين الشعر الجاهلي أو سجع الكهان في - رأيه - والقرآن الكريم .

إنه حين تعرض لذكر الشعراء راح يتشكك في أمرهم فقال : ربما كان ما تبيح لنا الشواهد القرآنية قوله : هو أنه كان قبل الإسلام بعض الكهان من بين العرب يعرفون باسم الشعراء ، وكانت لغتهم غامضة مبهمة كما هو الشأن دائماً في الوحي ...!

ثم ننظر إلى كلمة " شاعر " فإنها كررت ست مرات في القرآن ، وفي كل مرة تجئ في سور مختلفة ، وفق سياق معين مؤدية قيمتها الدلالية والضمنية والفكرية .

هذا ويمكننا القول : إنه لا يصح أن تُفرد سورة للشعراء ، متناولة صفاتهم ، ثم نجد خمسا من الآيات الست تدافع عن القرآن ضد التهمة الأساسية التي وُجّهت إليه حين اتهمه المشركون بأنه شعر ، وما الرسول إلا شاعر ، إلا وقد كان هناك شعراء قبل نزول القرآن ...، من هنا آ ن لنا أن نتساءل فنقول : هل يُعقل أن يكون العرب قد دأبوا على نعت القرآن ، لو لم يعرفوا الشعر معرفة جيدة ؟ الجواب : لا يعقل .

إن فالشعرُ الجاهليُّ ماضويُّ الوجود ، ثم إنه إن كان هذا كذلك فإن هذا التراث الأدبيُّ يصبحُ حاصلًا ماثلاً في عصرٍ من العصور ؛ وقد اُصْطُلِحَ على تسميته بالجاهليِّ ، ذلك الذي كــــانَ قَبْلَ البعْثَةِ المحمديةِ ، وآية ذلك أن محاكاة الشعر في صدر الإسلام لا بد أن تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه ، إذ لا يمكن أن يحاكو شيئاً ليس له وجود ، إذن فلا بد أن يكون هناك شعرٌ جاهليٌّ عرفه الإسلاميون ، وحاكوه ، وحقاً دخله الانتحال أمثال حماد وخلف ، ولكن انتحالهم شعر صحيح ينبغي أن نغتنم إلى معرفته بالرواية الوثيقة ، وصفاته الأسلوبية والشخصية .

معنى ذلك أننا لو فرضنا ظناً أن الشعرَ الجاهليَّ نُظِمَ في عصور إسلامية فإنه يتعين علينا أن نعلم أن هذا الشعرَ لابد أن يحاكي أصلاً - أي شعراً - هذا الشعرَ قيلَ في عصورٍ سابقة .

إن فابتنا شئنا أم أبينا ، توقفنا عند هذه القضية أم ذهبنا لنبتل الحقيقة ، وننكر الشعرَ الجاهليَّ فسنجد أننا نثبت صحة ما وصل إلينا من شعرٍ قديم .

إن فشواهد الإنكار تأبى مساراتها الافتراضية أو الوهمية ، وتدور - فعلاً - في مداراتها الحقيقية ؛ لأن هناك حقيقة ، أو حجة أخرى ، وهي أن في الشعرَ الجاهليَّ صوراً من التراكيب والأساليب النحوية الشاذة ، إذ لا تخضع لقواعد نحوية ، بمعنى أنها ابتعدت عن صورها الطبيعية ؛ فلعل مما يدل على قدمها ، وأنه قد بعد العهد بها ، أنها ليست من صنع متقدمين ؛ كأن جاءت في عصرٍ ما قبل تدوين اللغة ، وتقعيد النحو ؛ لأنه لو ثبت لنا غير ذلك لما وجدنا اختلاف المدرستين : الكوفية والبصرية - على مائدتها - حتى رأينا الأولى كانت لا تقبل الشاذ ، ولا تقيس عليه ، بينما نرى الأخيرة تقبل الشاذ والضرورات اللغوية ، وبما أن الوصل يدل على قطع ، لذا فإن اختلاف المدرستين في بعض الآراء والمذاهب النحوية يؤكد وجود التباين أو التباين في استخدام الشعراء الجاهلين للأساليب والتراكيب الشاذة في عصرٍ سابقٍ لتقعيد اللغة والنحو .

ثم إن جهد القدماء من علماء اللغة في هذا المجال وافر وخصيب ، وهنا نذكر منه صنيع ابن عصفور الإشبيلي الذي راح يقدم لنا كتاباً في صنائع الشعر موضحاً أن الضرورة في الشعر جائزة حال السعة .

وهذا أبو عليّ الفارسيّ الذي قدّم لنا - هو الآخر - في كتاب " شرح الأبيات المشكّلة في الإعراب (١) مادةً وفيرةً تنهضُ دليلاً على وجود الشاذّ والغريب في شعرنا القديم.

ونحا أبو عبد الله القزاز نفسَ النحو فآلف كتابه " ما لا يجوز للشاعر في الضرورة (٢) ، إذ قصد فيه إلى معالجة الضرورات النحوية ، وإن كان المجال لم يتسع لمعالجة موضوعات ما يعاب في الشعر عامةً . وحديثاً نرى الدكتور عبد المتعال شاهين ألف كتاباً في " الضرائر اللغوية في الشعر الجاهليّ " فتناول فيه الضرورة ، وأحكامها وقضاياها ، وضرائر الحذف والتغيير ، وإليك بعض الشعر ، وما بداخله من عيوب تركيبية أو شواذه النحوية أو اللغوية (٣) ونذكر منها على سبيل المثال :

١- حذف حرف الجار في قول (٤) النابغة الذبيانيّ

فَبِتُ كَانَ الْعَالِدَاتِ فَرَشَنِي ~ هَرَأَسَ بِهِ يُعَلِّي فِرَاشِي وَيُقَشِّبُ

حيث يريد "فرشن" لي فحذفت اللام " وأوصل الفعل إلى الضمير نفسه "

٢- في جرّ سواء : مثل قول الأعشى (٥) :

تَهَانِفُ مَنْ جَوَّالِيَمَامَةٍ نَاقَتِي ~ وَمَا قَصَدْتُ مَنَاهِلَهَا كَسَوَالِكَمَا

فبالنظر إلى "سواء" نرى أنها جاءت مجرورة بالكاف على حين أنها لا تخرج عن الظرفية إلا في الضرورة.

(١) انظر : الكتاب بتحقيق د./ محمود الطناحي ، بيروت ، ١٩٨٨ م .

(٢) انظر : الكتاب تحقيق المنجي الكعبي ، الدار التونسية للنشر ، سنة ١٩٧١ م .

(٣) انظر : الكتاب من إصدارات دار الرياضي للنشر والتوزيع ، سنة ١٩٨٢ م .

(٤) انظر : ضرائر الشعر لابن عصفور الأشبيلي ط ٢ ص ٢٩٢ .

(٥) انظر : المصدر نفسه ط ٢ ص ٢٩٢ .

ننتقل إلى الزعم الثاني : وهو إنكاره أن يكون الشعر الجاهلي حفظاً بالرواية أو التدوين ، فنراه يستثنى الرواية الشفهية تارة قائلاً ، : (فلم يبق إلا الاحتمال الثاني وهو : أن هذه القصائد حفظت بالكتابة ، وأخرى يومئ إلى أن بعض الشعر الجاهلي كان يكتب ، ثم نرى نزعة الشك تسيطر عليه مرة أخرى فينفي كتابة الشعر الجاهلي لسببين :

الأول : أن أمر الكتابة يتناقض مع صريح ألفاظ القرآن الكريم ، وأيضاً لأحكامه التي يقررها حيث إنه يسأل كفار مكة الذين عارضوا الإسلام قائلاً : " أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ سورة القلم الآية (٣٧) ، ثم يسأل الكفار والمشركين فيقول : " أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ " سورة القلم الآية (٤٧) وأولئك الذين يخاطبهم القرآن لم ينزل على آبائهم نذير ، قال تعالى : " لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ " سورة يسن الآية (٦) وقوله سبحانه : " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ " سورة السجدة الآية (٣) ، وقوله عز من قائل : " وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ " سورة القصص الآية (٤٦) إلى غير ذلك من الآيات التي عرضها المستشرق (مرجليوث) في هذا الشأن .

الثاني: يذهب فيه إلى أن الأدب في تطوره يسير عادة - وربما دائماً - من الصور الشاذة غير المنظمة إلى الصور المألوفة المنظمة ، وعلى أية حال فإنه ليس بخاف علينا أن الشعر الجاهلي مليئ بالفاظ غريبة على العلماء الذين عرضوه على محك النقد ، ألفاظ تنتمي إلى مرحلة لغوية أقدم من عصرهم ، وغير مستعملة في الزمن الذي كتبت

فيه القصائد ، وجمعت الدواوين ، إلا أن الشراح قد توصلوا إلى شرح الصعوبات بالجدل والنقاش ، ومقابلة عبارة بأخرى ، وليس بالرجوع إلى لغة الخطاب ، والمعاجم تعتمد كل الاعتماد على الشعر القديم وعلى القرآن الكريم والحديث الشريف وتفترض صحة الشعر كما تسلم بصحة القرآن والحديث (١)

من هنا يرى أن الشعر الذي يزعم أنه جاهلي إنما هو مرحلة تالية للقرآن ، لا سابقة عليه ، وذلك حاصل في قوله : (إن الأساليب الأدبية العربية سواء أكانت ماثلة في النثر المسجوع ، أو الشعر ، فيها مشابهة من أسلوب القرآن ، وفي القرآن آيات لا ينكر أنها نثر مسجوع إلا الغلاة من المتشددین ، كما أن فيه أمثلة على كثير من الأوزان الشعرية ، والتطور من الأسلوب القرآني إلى الأسلوب المنتظم إذ يبدو متمشياً مع المؤلف.

وإذا كان القرآن أول أثر في اللغة يظهر فيه الفن الأدبي فإن ما يدعيه لنفسه من الإعجاز في الفصاحة أمر من اليسير على الناس فهمه ، وهو لا يختلف بذلك كثيراً عما يدعيه لأنفسهم أولئك الذين أدخلوا - لأول مرة - النظم في اللغة ، أو ينسبه إليهم الآخرون ، أما إذا كان المستمعون قد تعودوا سماع النثر المسجوع ، والشعر الكامل المصقول - كما في أساليب الآثار الأدبية التي تدل في ظاهرها على أنها جاهلية - فإن من الصير إقامة الدليل على هذا الادعاء ، ثم يومئ بعد ذلك إلى الرواة من علماء القرنين الثاني والثالث الهجريين ، فيذكر (حماداً ، وجناداً ، خلفاً الأحمر ، وأبا عمرو ابن العلاء ، والأصمعي ، وأبا عمر

(١) راجع : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية لناصر الدين الأسد ، ط دار المعارف ص ٢٧٤ ، سنة ١٩٥٦ م

الشيباني ، وابن إسحاق صاحب السيرة ، فيجمع بعض ما تناثر في الكتب العربية من إشارات تشيع الشك في بعض ما جمعوا أو أرادوا من الشعر الجاهلي ... !!

مؤدى الكلام أن مرجليوث - كما يبدو لي - راح يقيس الشعر الجاهلي في الجانب السابق على القرآن الكريم ، وهذا فساد منطق ، وسوء فهم وتفسير ، وعليه فهو مرفوض جملة وتفصيلاً ؛ لأن القرآن الكريم كتاب سماوي ، ودستور ديني يهدف في المقام الأول إلى أن يوحد العرب على الإسلام ؛ لذا فإنه من الطبيعي أن يعرض لدياناتهم ، ويحللها مناقشاً إياها ؛ ليبين ما فيها من ضلال أو زيف بخلاف الشعر فإن مبدعه آنذاك لم يدع إلى دين جديد في الجاهلية على الرغم من أن كتاب الأصنام لابن الكلبي يمثل ذخيرة وفيرة من الشعر الذي يصور حياتهم الوثنية تصويراً دقيقاً .

ثالثاً : ينتقل إلى الحديث من إنكار وصول الشعر الجاهلي بالرواية فيقول

: (لو فرضنا أن هذا الشعر حقيقي فكيف حفظ ؟ لابد أنه حفظ إما بالرواية الشفهية ، وإما بالكتابة ، والأول هو الرأي الذي يقره المؤلفون العرب ، مع أنه ليس بالرأي الذي يجمعون عليه ، ويشك في أن يكون الشعر الجاهلي قد حفظ بالرواية الشفهية ، باتياً شكه على أسباب ثلاثة ، هي :

الأول : إذا كانت قصائد عديدة وذات أبيات كثيرة قد حفظت

بالرواية الشفهية ، فلا يمكن حدوث ذلك إلا إذا وجد أفراد عملهم أن يحفظوها في ذاكرتهم ، وينقلوها إلى غيرهم ، ولا نظن أن حرفة كهذه وجدت خلال العقود الأولى من الإسلام .

الثاني : ما يذهب إليه المسلمون من أن الإسلام يجب ما قبله ، وما ورد في القرآن من أن أتباع الشعراء "هم الغاؤون" ، ثم نفهم بأنهم "يهيمون" في كل صوب وحذب ، كما يقولون ما لا يفعلون حيث يظهر للقارئ أن حديث القرآن عنهم فيه قسوة عليهم ، واحتقار لهم ، على هذا التصوير يظن مرجليوث أن ثمة سبباً قوياً يدعو إلى نسيان الشعر الجاهلي ، إذا كان ثمة شعر جاهلي حقيقاً !....

الثالث : إن الأعمال التي تخلدُها عادةً هذه القصائد كانت انتصارات القبائل بعضها على بعض ، والإسلام الذي يسعى إلى توحيد العرب على العقيدة ، ووحدة الصف - إذ نجح نجاحاً كبيراً في تحقيق تلك الوحدة - كان يحث على نسيان تلك الحوادث ، والقصائد التي كانت تحمل - بين طياتها - هذا النوع من التفاخر القبلي والعصبي آنذاك ؛ لأنه يثير في النفوس الرغبة في الانتقام ، ويدعو إلى إباحة الدماء. بالنظر فيما جاء به مرجليوث فإنه يحمل - بين طياته - دلائل بطلانه ؛ لأن إنكاره أن تكون الرواية الشفهية هي التي حفظت لنا الشعر الجاهلي حيث وجد أفراد ينقلونها ويحفظونها من جيل إلى جيل .. ، هو أمر لا يدعو إلى الغرابة والدهشة معاً !

وهنا أن لي أن أتساءل قائلاً : ألم يعلم أنه كان لكل شاعر راوٍ يحفظ شعره ، ويذيعه في كل مكان حتى صار المتحدث الرسمي لشاعره ... ولعلنا كان يروي شعره على القبائل حتى لقد عرفنا الكيفية التي تم بها اتصال الروايات ، فمثلاً لقد كان زهير بن أبي سلمى رواية أوس بن حجر ، وكان كعب بن زهير ، والخطينة روايتي زهير ، وكان هذبة بن خشرم العذري رواية الخطينة ، وجميل بثينة رواية هذبة ، وكثير عزة

روايةً جميلٍ حتى تكوّنت مدرسةً فنيةً أُسْتُكْمِلَتْ لها خصائصُها الفنية ،
وأصولُها التراثية ، ألا وهي مدرسة التجويد الفني .

وهنا يرى الدكتور عبد الحميد المسلول أنه : "إذا كانت الكتابة من
شأنها الحفظ والضبط ، وصون الكلمات من أن يعدو عليها التغيير ، أو
يتسرب إليها المحو أو التبديل ، فإن ذاكرة الشاعر - أو الرواية - بما
تعودته من وعي ، وشدة يقظة ، وبما يضطرُّ فيها من حرص وفرط
رغبة - كفيلة بأن تحتقب الأشعار ، وتضمن بقاءها ، وتخترنها خوف
الضياع والنسيان ، وإذا كنا نقيسُ على ما عندنا الآن من ذاكرة كثيراً ما
يستبدُّ بها النسيان ، ويتسرب إليها التضييع ، فإن هذا قياس - لعمرى -
غيرٌ بديع ، فنحن نعتمدُ على التقييد والتدوين ، ومن أجل هذا استنامت
الذاكرة ، وألقت حمولها وأعباءها على الدفاتر والصحائف ، أما في
الجاهلية فالذاكرة دائماً يقظة شديدة الحساسية (١) ؛ لذلك فلقد كان
الراوي أكثر أهمية للشاعر ، إذ تتجاوز مهمته دور المتحدث الرسمي أو
نشر قصائد التي جمعها ، وإظهار الظروف والمناسبات التي قيلت فيها
مع تقديم إشارات تاريخية .

عموماً فلقد كانت رواية الشعر بمدلولها العلمي طوراً لغوياً
متأخراً ، هذا ولقد استمرت فلم نتقطع حتى عصر التدوين حيث كانت
علماً وفناً ، وقد التزم بالتحري والدقة .

ولعل ما يؤكد على تواجده الرواية الشفهية هو أن من مقومات
الرواية الشفهية الذاكرة الحافظة تلك التي تحدث عنها القرآن فنت

(١) انظر : نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي ص ٢١

العربُ بها ، وقصرت عليهم ، حتى أنزلَ القرآنَ عليهم فقالَ : " إِنَّا نَحْنُ
نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " سورة الحجر الآية (٩).

كما أن تعدد الروايات داخل البيت الواحد ، واتساعها ليؤكد لنا ما
يلي:

- النسيان حيث إن ذاكرة الراوي كثيراً ما تنسى ، فتضع كلمة
مكان كلمة حتى يستقيم الوزن والمعنى .
- خصائص اللهجات حيث كان العرب ينشد بعضهم شعر بعض ،
كل على طبعه ، ومقتضى نظرتة اللغوية ، ومن هنا يقع
الاختلاف اللغوي ، هذا بالإضافة إلى تزيد الرواة إذا كان في
مقدور الراوي أن يغير .

وهنا تجدر الإشارة إلى ما قاله بلاشير ، حين أكد على أن رواية
هذا الشعر استمرت حية نشطة من الجاهلية إلى أن دُونَ نهائياً في
العصر العباسي ، ولربما أصابها بعض التغيير في أثناء سفرها الطويل ،
أما أنا فأقول : إذا لم يصل إلينا التراث القديم عن رواية أو كتابة فكيف
انتقل من جيل إلى جيل عبر الأزمان ؟ وكيف عرفنا سير وأخبار ،
وحضارات أمم القرون الأولى ؟ وكيف توارثناها ؟

إنه لو لم تكن هناك الكتابة يَبْدُ أن العرب عرفوها عن طريق
اتصالاتهم بحضارات الأمم المجاورة ، فلا بد أن تكون هناك الرواية
الشفهية كمرحلة سابقة طبقاً لسنن التطور العقلي والحضاري في الحياة

هذا ولا يفوتني القول:- بأن الأغاني والأنشيد التي كان يرويها
أباؤنا عن أجدادهم أو أسلافهم الذين لم يحفظوا بفتات من الثقافة والوعي

- إذ كانوا جهالاً لا يعرفون القراءة والكتابة ، وأتذكرُ نفسي ، وأنا أراجع شريط تلك الأنشيد والقصص الشعبية على ذهني - كم أجدُ فيها من البساطة والسذاجة المغالطة مما يدفعني إلى حتمية القول : لمَ لمَ يغيرها أحد من قبل ؟ ألم يفطنوا إلى ذلك الحق أنها وصلت إليهم هكذا ، وظلت هكذا حتى وأن أصابها تغيرٌ فهو طفيف .

ننتقلُ إلى انتقاده الرواة المتهمين أمثال حماد ، وخلف الأحمر فنقول : حتى وإن كان هذا كذلك ، فهل توقفت الرواية الشفهية على هذين ، وإن كاتا من الرواة المتهمين فهل نعدُّهما النموذجين ، أو المثالين للرواة المحترفين الذين يرددون أشعار القبائل ، - فهما - حتى وإن كاتا ممن لا يؤخذُ عنهم ، وسلمنا - جدلاً بما وصل إلينا فكلاهما من أصل فارسي ، والقدماء حذروا منهما ، ويكفي قول ابن جني في هذا الصدد - " العجب لمن يأخذ عن حماد ، وكان يلحن ، ويكذب ، ويكسر " (١) .

أما الرواة العرب الذين جرحهم ، واتهمهم بالكذب فكانوا عرباً متفاوتين ، فيما بينهم صدقاً وأمانة ودقة تبعاً لتكوينهم الفكري والطبقي أو العنصري والثقافي ، وغالباً ما نقلوا التراث نقلاً أميناً دون زيادات حتى وإن كذبوا فإتهم اعترفوا بما اقترفت أو صنعت أيديهم ... ، وذلك عمرو بن العلاء كيف نصفه بالكذب والانتحال وهو يعترف بأنه وضع على شعر الأعشى بيتاً ، ولو لم يكن قد أخطأ لما اعترف بذلك ، وأبو عمرو الشيباني : الذي قال : فيه خصومه إنه كان على ثقة في رواية الشعر الجاهلي حتى جاءت شهادة خصومه مطابقة لشهادة مريديه ، ويقول الرواة أنه قرأ دواوين الشعر على المفضل الضبي ، ثم الأصمعي الذي -

(١) انظر : الخفصص ج ١ ص ١٧٦

عدده المؤرخون أنه - كان حجة ، بل من الرواة الثقات في اللغة ، ورواية الشعر حتى أنه اختار مجموعة من أشعار الجاهلين ، وقدمها في كتابه ، وهناك المفضل الضبي الذي كان مختصاً بعلم الشعر ، وأوثق رواية الكوفيين .

فهؤلاء العلماء الرواة هم الذين حفظوا الشعر ، ثم نقلوا إلى غيرهم تلك الأشعار التي تنسب إلى نظام أبطله الإسلام عقائدياً ونظامياً . أيضاً زعمه أن القرآن يجب ما قبله هو زعم محض ، وتصور يؤكد لنا أنه لم يستوعب الجاهلية ، ولم يتفهم الواقع التاريخي ، ولا يدرك المقصود من القول " القرآن يجب ما قبله " ... ، إنه كما يبدو لي يلوي أعناق الكثير من المعطيات النصية فيضعها في غير موضعها ، وهذا فكر خاطئ ، فالشعر الجاهلي يرينا أخلاق مجتمعه على غير ما نراه في القرآن ؛ لذلك فإن الإسلام لابد أن يلغي العادات والقيم التي لا تتناسب معه جملة وتفصيلاً .

فالجاهلية بعاداتها وقيمتها ومعتقداتها وخرافات شئ ، والإسلام وما جاء به شئ آخر ، ثم أن الرسول (ﷺ) لما خطب في الناس خطبة الوداع يوم التاسع من ذي الحجة ، في العام التاسع من الهجرة بعرفة قال : أيها الناس - إن عادات الجاهلية موضوعة - أي لا أساس لها - إلا السدانة ، أي حراسة البيت الحرام - والسقاية أي سقاية الحجيج ... ، ثم تطرق إلى ربا الجاهلية والعصبية القبلية ... إلى آخر الخطبة .

أخيراً نصل إلى شكه في ابتداء الشعر العربي ونشأته ولفته حيث يرى أنه أمر في غاية الغموض ، ثم ينعت الذين يذهبون فيقولون : إن مهتللاً هو أول الشعراء هم يظنون في ذلك ، ونحن أيضاً نعتقد في ذلك ؛ لأن المهتلل وامرئ القيس ليسا أول من قال الشعر ، وإنما هما أول من قصد القصائد

الطوال ، إذ كانت هناك مادة شعرية في صورة مقطعات قصيرة يقولها الشاعر حين دعت إليها الحاجة ؛ لأنه لا يصح أن يكون الشعر قد وُكِدَ عملاقاً هكذا وآية ذلك أن شعر امرئ القيس نفسه جاء محاكاةً لمن هو أقدم منه ؛ حيث إنه كان يقف على الأطلال ، ويبكيها أسوةً بشاعر قبله ، قيل إنه أول من الديار ويؤكد ذلك في قوله :-

ضجاً على الطل المحيل لعنا *** نبكي الديار كما بكى ابن خدام

معنى ذلك نقول : إن الشعر لم يخلق من العدم ، وكل ظاهرة فنية لا بد أن تكون ثمرة محاولات طويلة ومتواصلة ، استكملت لها كل أسبابها ، واستوفت مقوماتها حتى آتت ثمارها الناضجة .

ثم بالنظر إلى حديثه عن اللغة الجاهلية من حيث اختلاف اللهجات بين القبائل ، وفي اللغة الشمالية والجنوبية تحديداً ؛ فإنه ينكر أن تكون هناك لغة مشتركة منتشرة في أنحاء الجزيرة ، لكن أستاذنا الدكتور على الجندي قد حسم هذه المسألة برأيه القائل : إن هناك لغةً نموذجيةً أي مشتركة يفهمها الجميع ، إنها لغة القرآن ، وهي الفصحى التي هي لغة الأدب الجاهلي قد كتبت بها شعراء الشمال والجنوب بدليل نزول القرآن الكريم ، وفهم العرب جميعاً له ، وجدالهم حوله (١) ، إذن فلا شذوذ ولا غرابة في أن يكتب شعراء اليمن شعرهم في اللهجة الشمالية ؛ لأن تقاليد الشعر العربي قد سبقت ذلك ، وتثبت المستشرقين بالاختفاء وراء ادعاء أن اللهجة الحميرية كانت لابد أن تكون لغة الشعر

(١) راجع : في تاريخ الأدب الجاهلي ص ١٢٣

اليمني تشبث لا مبرر له في شعب قديم ، كتبه وآثاره وأشعاره في اللهجة الشمالية على اعتبار أنها النموذجية (١).

وبعد أن عرضنا لما وقع تحت أعيننا في منظور المستشرقين فإننا نؤكد أن بعضاً منهم قد بالغ في المشكلة مبالغةً معجوجةً كادت أن تعصف بكيان التراث ، وهذا أمر يدعو للدهشة والعجب معاً ؛ لأن التراث وقضاياها أمر شائك ، يجب أن يكون التعامل معه على قدر من العقل والتمحص ، مع مراعاة الحيطة والحذر ، لأننا نحكم على معلوم ومجهول معاً ... ، معلوم بحكم ما وصل بين أيدينا منه ، ومجهول بما لم يزل مطموراً ، وما وصل إلينا منه ليس بأفضله ... إذن فالتراث ليس كليّ الحضور كما يتوهم البعض...!!

من هنا فالأحكام الصادرة غالباً ما سيكون فيها الكثير من التصف والمخاطرة وهذا مما لا نرضاه لتراثنا .. هذا على جانب .
على الآخر فإننا لمسنا بعضاً من الأحكام أشبه بالتهمة المتراشقة والمغلوطية المعتمدة التي تنفي صفة العلمية عن منهج النظرية الانتحالية ، وذلك منظور المستشرقين.

هذا ويجب أن نشير إلى أن بعضاً من المستشرقين قد رأوا في الشعر الجاهلي أنه موضوع الاحترام ، بل ويعتقدون أنه مرآة صادقة للعصر الجاهلي من هؤلاء نيكلسون في قوله " إن الأدب الجاهلي المنظوم منه ، والمنثور يمكننا من تصوير حياة تلك الأيام الجاهلية تصويراً أقرب ما يكون إلى الدقة في مظاهره الكبرى ، كذلك فإن هناك

(١) راجع : مخمل إلى دراسة التاريخ والأدب العربيين ، لنجيب البهيبي ، ص ٦٠٧ ، دار الثقافة .

مقالة ليفي دلا فيدا عن " بلاد العرب قبل الإسلام " تحدث فيها عن قيمة المصادر التاريخية للعصر الجاهلي وأصل الرواية الشعرية فيها (١).

ملاك الأمر نقول :- إن الاستشراق - نشاط الأجيال العديدة من علماء العرب في دراسة العلوم العربية والإسلامية - قد تأزرت مضاميته لتبرز مقاصده المبطنة ، وكذا المعلنة طوال فترة العصور الوسطى حتى نهاية القرن السابع عشر جاهدة على معاداة الإسلام من خلال التبشير ، وهو إقناع المسلمين بلغتهم ، واجتذابهم للدين المسيحي ، وهذا يرجع إلى عقيدتهم الزاعمة بأن الدين المعادي للمسيحية لا يمكن أن يأتي بخير ... ، وهذا محض افتراء .

أما ما تلا هذا القرن إلى أيامنا هذه فلقد تباينت مشاعر المستشرقين ، وإن كان يجمعها باعث جديد يغيّر السابق شكلاً ومضموناً ، حيث إنه يتبلور في تقديرهم للإسلام ، ومظاهره المختلفة ، والذي عبرت عنه نظرته للأدب العربي القديم المتفاوتة تلك التي يغلب عليها طابع الإجلال والامتنان حيناً ، وبوادر الاستهجان حيناً آخر .

ونتيجة لما سبق فإنه لم تتوحد آراؤهم ، وكان مرد ذلك لدوافع عرقية ، ومنهجية علمية غير مقعدة أو مقتنة أغلبها مع تفاوت ملحوظ في الرؤية والأداة والموقف ... ؛

فالإنجليز - مثلاً - قادتهم العرقية إلى إصدار أحكام مجتزئة أو مبتسرة غابت عنها الموضوعية والحيادية ضد التراث الأدبي العربي ، وكان الحصاد المرء أن رأينا مرجليوث قد بلغ حد التشطط في إثارة قضية الانتحال ، هذا ويتفق معه كرنكوف الإنجليزي الجنسية الذي أساء الفهم

(١) راجع : في الشعر الجاهلي ليحيى جبوري ص ١٠٩ .

للشعر الجاهليّ رغم محاولاته في جمع هذا الشعر ، وتحقيقه ، ونشره وترجمته أحياناً .

أما الفرنسيون والأمريكيون فإنهم اهتموا بالجانب النقديّ المجحف لتراثنا عدا برونيلش الذي اقترب من الشعر الجاهليّ بروية متقدمة من روية أقرانه الغربيين المعتدلين الألمان ، وهو استثناءً يحسب له في تاريخ الأفكار ، والثقافات حيث نظر للأدب الجاهليّ تاريخاً ، وتراجماً للشعراء ، وملاحظات ، وبحوثاً عن الشعر والبيئة .

هذا ويظهر ما سبق بجلاء حين كشف جهل مرجليوث بموضوع الانتحال في نقاط أساسية حيث ردّ عليه ردّاً مقحماً ومفنداً تفنيداً عليماً .



المبحث الثاني - القضية بين جدلية المدّ الإقاربيّ ، والجزر الإنكاريّ الأزهرّي

إننا حين نغادرُ المستشرقين ، ونذهبُ إلى المحدثين المعاصرين العرب فسيتقابلُ - بالتوازي مع ابن سلام - الأستاذ مصطفى صادق الرافعي^(١) أول مَنْ تصدى لهذه القضية في تاريخ الأدب الحديث منافحاً حيث قدّم عرضاً مفصلاً يستقيم مع موازين الفكر السليم حين جمع - بشكلٍ أرشيفيّ ، ووعي تصنيفيّ ، وإدراكٍ معرفيّ - كلّ ما قاله الباحثون حول هذا الموضوع مضافاً إليه القصصُ ، وأثره في انتحال الشعر ، " وشعر الشواهد الشعرية " (٢) ، وتدليل المعتزلة والمتكلمين على مذهبهم في كتابه القيم " تاريخ آداب العرب عام ١٩١١ م " ، وكان المنتوج الطبعيّ أن أصدر فيه رأياً يطابق آراء القدماء - إلى حدٍّ بعيد - حيث تحرى فيه الدقّة والوضوح - أي إنه لم يتجاوز فيه ما تصوّره القدماء فاتسمت رؤيته بالأصالة والمعاصرة معاً ، وبخاصة أنه لم يشك في الشعر الجاهليّ كله ، وإنما ما ارتاب في بعضٍ منه مُرجعاً وضع القلة إلى "بواعث عدة" (٣) ، ولم يحمل نصّاً أكثر مما تحمل ، ولم يعتسف

(١) راجع : القضية في كتاب " المعركة تحت راية القرآن للرافعي .

(٢) راجع : تاريخ آداب العرب ص ٥٨

(٣) لقد تضاهت أقواله مع القدماء حين أرجع المسألة إلى خمسة أمور وهي كالتالي :
الأول : تكاثر القبائل بشعرها وشعرانها ؛ لتعاضدٍ مما انسرب من بين إصبع الزمان ، وبخاصة القبائل التي قلت أشعارها وآية ذلك قریش التي وضعت لحسان شعراً كثيراً .
الثاني : شعر الشواهد ، ويتمثل في استشهاد النحاة على آرائهم ، وهذا النوع يدخل فيه أكثر الموضوع ، لحاجة العلماء إليه في تفسير الغريب ، ومسائل النحو ، ويعد الكوفيون أكثر الناس وضعا للأشعار ؛ نظراً لتلقّهم بالشواذ .

الثالث : تدليل المعتزلة المتكلمين على مذهبهم .

الرابع : تكاثر الرواة ، واتساع الرواية .

الخامس : تلفيق القصاصيين والوعاظ للأخبار والأساطير إلى اختلاق الشعر للملاءمة بين أجزاء الكلام . =

الواقع اعتسافاً إلى الاستنتاج المترهل ، ولا إلى الظن المتعجل ، ولم يعتمد الرأي الواحد قاعدة مركزية ، ولا من حالات الفردية نظرية معيارية حاكمية ؛ لذا نشكر له جهده الذي عالج فيه الموضوع معالجة جامعة ، إذ سرد لنا كل ما قاله الأولون في كتابه من أخبار ، وما أثبت في كتبهم من أحاديث ، في عبارات منداة بالحكمة ؛ ليتبنى حركة الدفاع فحولة وسطوة مشروعة وبعداً وتأثيراً ؛ وليقدم نقلة نوعية في ذاك التاريخ المفصلي من تلك الحقبة ، وبخاصة حين وقف على ثغور الأمة الفكرية يدفع عنها كروبها التي هي أشد فتكاً بها من جيوش عدوها مستدعياً طاقة منطقية مخصبة لكل التيارات الفكرية بذكاء حاد ، ونقد جاد ، وتعليق متجرد ، واستقصاء متفرد .

هذا ولقد خلفه الدكتور طه حسين (١) حينما درس القضية دراسة مستفيضة في كتابه "الشعر الجاهلي" ، حيث أحدث الكتاب رجّة عنيقة في الأوساط الأدبية والنقدية لم تعهدها من قبل ، ثم كتابه المعدل "في الأدب الجاهلي" سنة ١٩٢٧م

وتباعاً تصدى الكثيرون له مفندين أقواله ، ومبطلين مزاعمه ، وقد أعادوا الشعر الجاهلي إلى مكانته التي تبوأها ... ، هذا وسنعرض الآن أطرافاً مما ساقه لدوافع شكّه ، وأسبابه (٢) ، وكيف تعامل معهما

(١) لقد تصدى للردّ على نظرية طه حسين المرجليوثية الهوى والنزعة ثلة كبيرة من أهل العلم والدرس ، نذكر منهم : محمد الخضر حسين في كتابه "نقض كتاب في الشعر الجاهلي" ، ومحمد الخضري في كتابه (محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب "في الشعر الجاهلي" ، محمد فريد وجدي " في كتابه نقد كتاب في الشعر الجاهلي" ، ومحمد لطفي جمعة في كتابه " الشهاب الراسد" ، ومحمد أحمد الفراوي في كتابه "النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي . وشكيب أرسلان في مقدمته التي صدر بها كتاب الفراوي .

(٢) لقد عزّاه طه حسين أسباب الانتحال إلى :

أولاً: السياسية : حيث رأى أنها تدخلت في اختلاق الأديب ونحله ، وبخاصة الفترة التي تزامنت مع الدعوة الإسلامية ، وقيام الدولة الإسلامية التي أحلت وحدة المعتقد محل وحدة القبيلة ، وما اكتنفها من ظروف وتداعيات ، وأهمها ما كان من عداوة بين النبي (ﷺ) ، والكفار ، ثم تمدها وانتشارها بعد الهجرة بين مكة ، ومن فيها من قريش ، والمدينة ومن فيها من الأنصار ، وتباعاً ما حدث بعد وفاة النبي (ﷺ) من خلافٍ نشب بين المهاجرين من قريش ، والأنصار من الأوس = والخزرج ، ويقيناً ما وقع من شقاق في خلافة عثمان بن عفان ، وما حدث بين علي ومعاوية ، هذا فضلاً عن الأحقاد القديمة أو الدفينة تلك التي سرى دبيبها بين القبائل آنذاك....!!

ثانياً: الدين : وفيه عول على أن الظروف - التي أحاطت بالحياة الدينية للعرب عامة ، والمسلمين خاصة - قد دعت إلى نحل الشعر ، وأهمها : إثبات صحة النبوة وصدق النبي (ﷺ) ، وتعظيم شأنه من ناحية أسرته ، ونسبه إلى قريش و ،

ثالثاً: القصص : وأهميته عند العرب حيث إنه يزين بالشعر ، وفيه يرى أن القصاصيين - أيام بني أمية وبني العباس - كانوا في حاجة إلى وضع كثير من الشعر المتصل بالعرب والعجم والنبوءات والفتوحات ؛ فاخترقوه هم أنفسهم ، أو استعابوا بافراد يجمعون لهم الأخبار ويلفقونها ، وآخرين ينظمون لهم القصائد وينسقونها ؛ ذلك جرياً على نسق الخيال ، وتزيين القصص بالشعر ، وجذب وتشويق له جد يتحدثون إليه في مساجد الأمصار .. =

رابعاً: الشعبية : ونشأتها بعد دخول الموالي في الإسلام ، وموقفهم من الأحزاب السياسية التي بزغت فجر قيام الدولة الأموية .. ، وهنا استغلوا الخصومات السياسية التي كانت بين هذه الأحزاب ليعيشوا من جهة ، وليخرجوا من الرق ، ثم ليشفوا ما في صدورهم من غل ، وينفسوا عن أنفسهم ، حيث إن الكراهية التي حدثت بين العرب والفرس أدت إلى اختلاق أدب للعرب فيه إشادة بالعروبة ، وعزتها ومنعتها ، كما دفعت بعض الفرس إلى وضع أدب يردون فيه على هؤلاء العرب ، ويثبتون للفرس أصالتهم وتقدمهم ، وللعرب همجيتهم وتأخرهم .

خامساً: الرواة : وفيها يرى أنها من أهم الأسباب التي عبت بالشعر العربي ، وجعلت حظّه من الهزل عظيماً ، هذا ولقد اقتصر بالتمثيل على خلف وحمام .. ،

والناظر - بعين التأمل والنقد - في الأسباب التي ساقها د. طه حسين للتدليل على الانتحال يؤكد : إنه في حديثه عن السياسية ، وأثرها المؤدي إلى انتحال الشعر لا يجد بيتاً واحداً جاهلياً وصل إلينا يدل على صدق ما ذهب إليه ، الأمر الذي يجعلنا لا نأخذه مأخذ إذعان ، وتسليم به .

وفي حديثه عن اعتماد الدين سبباً من أسباب الانتحال ، وبخاصة ما جاء في أمر النبوة والنصوص الممهدة لها فإن الأستاذ محمد الخضر حسين تصدى له قائلًا : أما الذين يعتقدون بأن نبوة أفضل الخلق حق ، فمن الجائز عندهم أن يسبقها شعر أو خبر يتصل بها ، وشأنهم أن يفصحوا ما يرذ في هذا الصدد ، ويضعوه بمنزلة من الوضع أو الضعف أو الصحة ، وكذلك فعل علماء الإسلام فحكموا على جانب مما كان من هذا القبيل بالوضع كالأخبار والأشعار المعزوة إلى قس بن ساعدة ... راجع : نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٦٨ ، مكتبة الإيمان للطباعة ، والنشر سنة ٢٠١١ م .

علمائنا الأزهريون قارعين الحجة بالحجة ، والبرهان بالبرهان حتى يستقيم الأمر.

وهنا ننظرُ إليه وهو يقولُ : "إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليس من الجاهلية في شيء ، وإنما هي منتحلة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية خالصة ، تمثل حياة المسلمين ، وميولهم ، وأهواءهم أكثر ما تمثل حياة الجاهلين ... ، وأكادُ لا أشكُ في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل ، لا يمثل شيئاً ، ولا يدلُّ على شيء ، ولا ينبغي الاعتمادُ عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي ... "

وقوله أيضاً " إن الشعر الجاهلي لا يمثل حياة العرب الاجتماعية والدينية والسياسية والعقلية " (١)

في البدء - لابد أن تستوقفنا جملته الأولى التي يقول فيها : "إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء ، حيث إن الجملة المفتاحية " الكثرة المطلقة " - المؤكدة بأن سبيلاً لتوضيحها ، وتقويتها : تلك التي أودعها على قارعة مقولته الذائعة الشهرة في أوساطنا النقدية - تدشن ملفوظاً - منطوقاً ومفهوماً - توافرت فيه كل مقومات النظرة الشككية بأصباغها القاتمة تلك التي يضيع عندها أو معها الثبوت ، والتوقف ، والنظر التام النفاذ ، ويصبح من شأنها أنها تنسف أي بادرة تواصل يبتني على تفاهم وتواشج مع معطيات تراثنا النقلية سواء أكانت نصية أم اجتهادية ، أو إن شئت فقل : محاولة إحداث

وأخيراً فإن ما ساقه د. طه حسين في أمر الشعبية يرى أنها لم تكن بالصورة المخيفة تلك التي صورها لنا ، بل إنها كانت حوادث فردية ، حيث إنها خضعت في مجملها لتراكيب نفسية مركبة وعوامل بيئية محددة.

(١) انظر : في الأدب الجاهلي ط ٢ ص ٢٧٧ لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٩٣ م .

قناعات ذهنية ، تحقق توازناً فعلياً ونفسياً برهصاً بحتمية العودة للتصالح - بعد قطعية - مع التراث على أساس من الرضا الفعلي.

ونجتهد في البحث عن هذا المخزون أو ذاك المفاعل الشكّي الولاَج فسندج أنه نتاج ترسبات تعلّميّة متراكمة ، كونتها جملة ما امتاحه من نظرية الشكّ لديكارت ، وشفغته غير المسبوق بهما ، كل هذا على اعتقاد منه جازم بأن الشكّ - كما لقنه أستاذة - أولى مراحل الوصول إلى المعرفة الحقيقية المبنية على اليقين العلمي ؛ لكنه لم ينتبه إلى خصوصية تراثنا الشديدة الحساسية ، وعلاقته المتشابكة مع القرآن الكريم بكلّ ظلاله وخلفياته ذاك الكتاب الخالد ... ، هذا من جانب .

على الآخر : فإنّ هذا الشكّ من شأنه أن يقصينا ، فينأى بنا بعيداً عن الحقل المقدس ، لنجد أنفسنا أمام طرائق معقدة من الأفكار والمعتقدات ، والأوهام ، وهنا سنجاقي الصواب .

ونذهب إلى الجملة التالية ، "مما نسميه أدباً جاهلياً" ، تلك التي أرفدها بالجملة السابقة ، وهي بلا شكّ - وإن كانت اعتراضية - فإنها تصادق على الإمعان في الشكّيّة ، وتعرض أو تحول دون تلاقح عند نقطة نظام تقريبية ، وكلّ هذا يزجّ بنا في مغارة الوهم ، وفداد التسفيه بعقول الأجداد ، وتحقير أعمالهم ؛ لنتحرك حركة خابطة في التيه ... ، وهذا مما لا نرضاه لتراثنا عنصر أصالتنا ، وسرّ ذاتنا ، والأساس الراسخ لوجودنا الحاضر والمستقبل .

نعوذ إلى الداخل ارتداداً للتساعل فنقول : أيّ كثرة مطلقة يقصدها ؟ أو ماذا يعني بها ؟

هل الكثرة المطلقة من شعرنا الجاهليّ المعلوم ؟ أم الكثرة المطلقة من شعرنا الجاهليّ المعلوم والمجهول معاً .. !!؟

إنه لو كان يقصدُ الكثرةَ من شعرنا الجاهليّ المعلوم ؛ فمن المحتّم علينا أن نقولَ : هل استطاعَ الدكتورُ أن يحصيَ أو يقفَ على تراثنا الشعريّ جمعاً وتحقيقاً ودراسةً ... !!؟

أعتقدُ لا .. ؛ لأن بعضَ الجامعاتِ المصريّة - منذُ الربعِ الأخيرِ من القرنِ الفائتِ أو المنصرمِ ، أي منذُ قرابةِ ثلاثين عاماً بالتحديد - جعلت مقررَ موضوعاتِ الماجستيرِ والدكتوراهِ قاصراً على جمعِ دواوينِ القبائلِ الشعريّةِ وتحقيقيّها إذ بدأ يخطو خطواتٍ واسعةً نحو الكمالِ وذلك لإيمانِ أساتذتنا من أهلِ العلمِ بأن تراثنا لم يزلَ مطموراً ، وما وصلَ إلينا ليسَ بأفضلِهِ ، وكانَ المنتوخُ إنّ عشراتِ الدواوينِ أمست محققةً بين أيدينا الآن حيثُ جُمِعَت من مظانٍ متعددةٍ من كلِّ مكتباتِ العالمِ .

والحقُّ أن التصدي لشعرِ القبائلِ العربيّة - في الوقتِ الحاضرِ بالجمعِ والتحقيقِ لا يعدُّ جديداً في بابهِ ، أي أنه ليسَ من جهدِ الدراساتِ الأدبيّةِ والنقديةِ المعاصرةِ وحدها ، وإنما هو امتدادٌ لجهدِ القدماءِ من علمائنا الأفاضلِ الذين نهضوا مع بدايةِ القرنِ الثالثِ الهجريّ بتصنيفِ مجموعاتٍ كبيرةٍ من أشعارِ القبائلِ آنذاك .

إن ما يدلُّ على صدقِ ما ذهبنا إليه اعتقاداً هو أن هناك ما يربو عن ستين ديواناً - وقيلَ ثمانين - قد ذكرها الآمديُّ (١) في المؤلفِ والمختلفِ ، وكذلك ابن النديم في " الفهرست " حيثُ حفظتِ المصادرُ أسماءَها ، وهي لا تعدو أن تكونَ جزءاً مما ذكرتِ المصادرُ نفسها أن العلماءَ الرواةَ قد صنعوه من دواوينِ القبائلِ .

(١) راجع : المؤلف والمختلف ص ٨٣ ، مطبعة القدس ، سنة ١٣٥٤ هـ والفهرست لابن النديم ص ٤ ، دار المعرفة بدون

إما إذا كانت الكثرة المطلقة يقصدُ بها المعلوم والمجهول من تراثنا الشعريّ ذلك القبس المتوهج فإنها مبالغَةٌ مجوجةٌ فيها الكثير من التصفّ والقسوة ؛ لأن تراثنا الأدبيّ - كما سبق أن قلنا - ما زال مطموراً ، وعلى الرغم مما وصل إلينا من مؤلفات هذا التراث ، إلا أنه ليس سوى جزء مما كان عليه في حينه ...، ولعلّ الجزء الأكبر من هذا التراث قد عدت عليه عوادي الزمن ، وحدثاته لاسيما أنه نكب بثلاث من أكبر المحن لا في تاريخ العرب فحسب ، ولكن في تاريخ البشرية بوجه عام ، إن ما يؤكد على صدق ما ذهبنا إليه قول ابن سلام في طبقات فحول الشعراء عن أبي عمر بن العلاء مقولته المشهورة: " ما انتهى إليكم العلم مما قالته العرب إلا أقلُّه ، ولو جاؤكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثيراً (١) "

فالواقف على أطلال ما سبق يرى ضمناً أنه يريد أن يقول : إن هناك جزءاً متفقاً على صحته وأصاليته قد مثّل الصورة الكاملة عن العصر الجاهليّ في كافة شؤون حياتهم ، هذا بالإضافة إلى الإشارة الواضحة إلى قلة ما بين أيدينا من تراث قديم.

ننتقل إلى المقولة التي تنفي تمثيل أو تصوير الشعر الجاهليّ لحياة الجاهلين بشكل عام فأقول : إنني زعيمٌ بأن المنهج الذي اتبعه د. طه حسين هنا إنما يتمثل في نظرية الانعكاس الكليّ ، وهي - كما يبدو لي - تقضي بأن الأدب ينبغي أن يكون مرآة تنعكس عليها الأشياء التي تقع عليه ، وهذا أمر لا يتعارض مع شرعية الأدب مطلقاً ، حيث إننا - على قناعة -

(١) انظر : طبقات فحول الشعراء ط ١ ص ٢٣ قراءة وتحقيق وشرح محمود محمد شاكر طبعة دار المعارف القاهرة سنة ١٩٧٤ م . وأبو عمرو بن العلاء هو زيان بن عمار التميمي المازني البصري من أئمة اللغة والأدب ولد بمكة سنة ٧٠ هـ ومات بالكوفة سنة ١٥٤ هـ .

بأن الأدب ينقل أو يصور حياة المجتمع تصويراً دقيقاً ، ويتأثر بما يدور فيه ارتفاعاً وهبوطاً ؛ حتى إنه أشبه بالبوصله التي تقدم درجة حياة عصره ، وإنا لو اجدون أنها الطريقة المثلى لقياس حياة العصر .

لكن ما نختلف عليه هو مساواة اللقطة القرآنية بالشعرية ؛ وذلك لتغاير قدرات اللاقط ، ولتباين خامه العدسة وإمكاناتها الفنية والمعرفية هنا وهناك .

فالقرآن مثلاً يعطينا صورة للعرب قبل الإسلام تدل على أنهم وثنيون ، جدليون منافحون عن وثنيتهم متمسكون بها كل التمسك ؛ هذه الصورة تتمتع بالصدق والتجرد والموضوعية بينما يعجز الشعر عن ترجمة هذا كله لأسباب عدة يأتي في مقدمتها أنه بناء استعاري رمزي في مجمله ، إذ يقدم ما استطاع من الحقائق بشكل تصويري ، لا ذهني محض ، ويسعى إلى إثارة الانفعالات في عقل وقلب المتلقي ، لا إنارة النشوءات لواقعه الفكري والمعرفي ...

ننتقل من العام إلى الخاص وهو إنكاره الشعر الجاهلي حياة العرب

العقلية في الجاهلية بدءاً فنراه غير راض على الشعر المنسوب إليهم .

لكننا هنا نؤكد أنه قد كان للجاهليين ثقافات وعلوم ومعارف ... إنها على الرغم من كونها محدودة ، لكنها تتناسب مع بيئة وعقلية الأميين ، ثم أننا كنا نريد لبدو عاشوا حياتهم بين حل وترحال ، أو حروب وغزوات ؟ أتريد لهم حياة عقلية راقية ، وقد كانوا في جمهورهم بدوا لهم يتحولوا إلى طور عقلي أو فكري منتظم إلا مع معجزة الإسلام الكبرى القرآن الكريم ، ومع ذلك كله فلقد كانت حياتهم العقلية ماثلة في أشعارهم .

لما عن الجاهلية التي يتحدث عنها فيقول : إن الشعر الجاهلي لا يمثل حياتهم الدينية ...؟ فتني لتساعل قللاً : كيف وقد كتبت في شبه الجزيرة قبل الإسلام - أبيان - ومعتقدات مختلفة ... أجل جالند كان فيهم الحنفاء واليهود والنصارى والمجوس والصالحين ، ...

فالحنفاء (١) الذين لم تعجبهم مخافتنا الجاهلية وهدوهم فهدوهم إلى أن الأصنام لا تضر ولا تنفع ، وأن هناك إلهاً واحداً هو رب العالمين فعبئوه ، على ملة إبراهيم الخليل ، كانوا موافقة العقيدة الحقة القاطنة على رعايتها والحفاظ عليها من الهيمنة الصليبية والموقفين الباطنيين عن العدل الديني والاجتماعي ، أصحاب الملة الحقة الحقة من هؤلاء القويين نوفل ، وقس بن ساعدة ، وأبو بكر الصديق ، وكان كل واحد من (ص) يفتني الغار على ملة إبراهيم حيث كان - أيضاً - من الحنفاء

والشعراء الحنفاء استطاعوا أن يقدموا لنا في شعرهم تصوراً عن حياتهم الدينية يصادق على صدق معتقداتهم فمثلاً نقول قول النابغة الجعدي الذي يقال : إنه أنكر - في الجاهلية الخمر والخمر ومجرم الأوثان ، والأرلام فقال :

العداء لا شريك له ... من لم يقنأ فليس له نصيب (٢)

هذا ولقد اهتمت مجموعة من الشعراء جاء عن طريق ربيعة التفكير في خير - إلى أن لهذا الكون خالقاً ، وأن ثمة حياة أخرى فيها أبو حارث بن الإنسان - خيراً بخير ، فنجد مثل قول الحارث بن عباد :

كل شيء مصير للزوال ... وصالح الأهل الزوال

(١) راجع : الشعراء الحنفاء للدكتور أحمد جمال المصري ، دار المعارف بمصر ، ١٩٨٢

(٢) انظر : أبيان العرب في الجاهلية لمحمد النعمان ص ١٩٣

حيث يرى أن كل شيء مصيره للفناء غير ربي والأعمال الصالحة
هذا ولقد تحدث الشعراء - في الوثنية - عن أصنامهم التي لا
تتجاوز الحصر ؛ وذلك لكثرتهم حيث كان لكل قبيلة منهم أكثر من صنم ،
وأصنامهم سفراً وحضراً تزيد عن الحصر ، أما في الحضرة فذكر ابن
اسحق أن أهل كل دار اتخذوا في ديارهم صنماً يعبدونه فإذا أراد أحدهم
السفر كان آخر ما يصنع به أن يتسمح بصنمه ...

نذكر على سبيل المثال لا الحصر قول أوس بن حجر :

ويا للآلات والعزى ومن دأب بيتها وبالله إن الله منهن أكبر

وقول طرفة بن العبد مخاطباً عمرأ بن هند :

إني وجلتك ما هجوتك وال أنصاب يسفح بينهن دم

وعلى كل فإن كتاب الأصنام لابن الكلبي يعد ذخيرة كبيرة من
الشعر تصور حياة الوثنية في المجتمع العربي آنذاك .

وننظر إلى النصرانية في الجاهلية فسنجد إنها دخلت في بلاد
العرب زمن الحواريين فقليل : إن القديس لوقا أول من دعا إليها في بلاد
اليمن أثناء مسيرته إلى الهند ، وبولس دعا إليها في الشام ، والعرب -
قبل الإسلام - شأنهم كساتر القبائل الأخرى تعبدوا الآلهة ، وفكروا في
وجود قوى غلبا ؛ لها عليهم حكم وسلطان وطاعة فحاولوا - كما حاول
غيرهم - التقرب إليها واسترضاءها .

لكن شيئاً لافتاً ينبغي ذكره وهو أن وجود النصرانية ليؤكد على ما
حظي به العرب من رقي عقلي ، حيث فكروا في وجود رب خالق ، هو
رب السماء والأرض .

نذكرُ من شعراء النصرانية قولُ جابر التغلبي النصرانيّ

وقد زعمتُ بهراءُ أن رماحنا رماحَ نصارى لا تغوصُ إلى دم

حيثُ كانت هذه الديانةُ لا تبيحُ سفكَ الدم

وقولُ امرئ القيس - مشيراً إلى أنه كان يتركُ برجالِ الدين من

الرهبان ، فالمقدسُ هو الراهبُ ، وكان حينَ نزوله صومعته يحيطُ به

الصبيانُ ، ويخرقون ثيابه ، بل يمزقونها تمسحاً ، به وتبركاً منه :

هأنركته يا عتق بالساق والناس كما هبّرتُ الوالدن ثوباً المقدس

وقولُ عديّ بن زيد العباديّ الذي أقسمَ بربِّ الكعبة الوثنية وربَّ

الصليب :

سعى الأعداءُ لا يألون قرأ عليّ وربّ مكة والصليب

وذكرِ الأعشى الرهبانَ ومحاربَ كنائسهم :

كلميةٌ صورُ معرابها بمنهبٍ في مرمٍ مائلٍ

وقولُ المرقش الأكبر

وتسمعُ نزلنا من اليومِ حوّلنا كما ضريتُ بعدَ الهدوءِ النواقيسُ

حيثُ يذكرُ نواقيسهم ، وفزعها في آواخر الليل .

كذلك دخلت اليهوديةُ إلى بلادِ اليمن على يدِ تبّع الأصغر ، ومن

اليهود الذين نزلوا المدينةَ بنو قريظة ، وبنو النضير ، وأشهرُ من دانَ

باليهودية من قبائلِ العرب : بنو نُمير ، بنو كنانة ، وبنو الحارث بن

كعب .

وما يؤكدُ على وجودها قولُ القرآنِ في وصفهم وقد نزلَ عليهم

التوراة :

"مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ
أَسْفَارًا" سورة الجمعة الآية (٥)

ثم تنتقل إلى زعم آخر من مزاعم الدكتور طه حسين ، إذ يتصور
فيه أن الشعور الجاهلي لا يمثل حياة العرب السياسية!! فنقول
إن الناظر المتأمل في حياة العرب السياسية يرى أنها موزعة على
قسمين:-

الأول : له مساحة سياسية ، وهؤلاء كانوا يعيشون في دول
متحضرة منظمة مثل التي كانت باليمن .

وهنا نقول : لقد أفاد المؤرخون بأنها اليمن - كان فيها النظام
ملكياً إقطاعياً من أساسه ، وقيل : إنه كان خليطاً قريباً من النظام القبلي
القديم ، ونظام الطبقات الأرستقراطية ، والملكية الإقطاعية مثلما كان
نظام الحكم في سبأ الذي وصفه الدكتور على إبراهيم بقوله : "قام نظام
الحكم في سبأ على الأسر الأرستقراطية القوية التي حالت دون نشوء أي
سلطة مركزية (١) .

ومنهم من كانوا يعيشون في إمارات ذات كيان مستقل ، إمارات
الحيرة والغساسنة وكندة ومكة والشام ، أما المدن والقرى الأخرى -
التي كانت في غيرها من شبه الجزيرة العربية - فقد ظهر النظام فيها
مختلفاً من مكان لآخر ، وكفي أن نعرف أنه كان في كل بلد مجتمع
خاص يكون ناديهم ، ومقر حكمهم حيث عُرف بدار الندوة ، وهو أشبه
بالبرلمان الصغير ،

(١) انظر : التاريخ الإسلامي العام ج ١ ص ٤٢

الأخر كان له إدارة قبلية حيث إنه لم يكن لهم وضع سياسي ، وإنما كانوا قبائل من البدو الرحل ينتمون إلى قبائل معروفة ، وتخضع كل قبيلة لشيخها الذي عادة ما يكون فارساً أو سيداً يتحلى بأزوع المثل العليا ، ومنها الكرم والإقدام والنجدة حيث تخضع لإدارته في الحرب والسلام.

والقبيلة - بجانب رئيسها - حكام امتازوا بالرأي السديد والعقل الحصيف ، وبُعْد النظر وهذا النظام هو الذي كانت تسير عليه أغلبية العرب من البدو في نجد والحجاز وتهامة ويستثنى من ذلك قریش ، ربما لاتصالهم بالأمم المتحضرة كفارس والروم ، هذا بالإضافة إلى نضوج عقليتهم ، وارتقاء فكرهم ، وكانوا يحكمون مكة حكماً أكثر انضباطاً من النظام البدوي حيث وضع قصي في القرن الخامس الميلادي أساس النظام الجديد حين بنى دار الندوة ، ليجتمع فيها الرؤساء للتشاور ، وإبداء الرأي ، كما أخذ ولاية البيت الحرام ، وجدد بناء الكعبة .

نعوذ إلى النظام البدوي فنقول : كان لشيخ القبيلة امتيازات منها أخذه ربع الغنائم ، ولعل هذا ماثلاً في قول أحد شعراء شيبان مخاطباً شيخ قبيلته :

وحكمك والنشيطه والفضول

لك المرباع فينا والصفايا

كما كانت القبيلة متمسكة بكل أفرادها ، إلا إذا بدر منهم سلوك لا ترضاه فإنها تخلعه من جماعتها ، وتنفيه من مجلسها .. ، معنى ذلك أنه كانت القبيلة تتصل منه ، وسرعان ما ينضم إلى حلف الصعاليك فتتكون عصابات خطيرة تعيش على السلب والنهب ، كما أن صلة العرب بغيرهم

من الأمم ، وبخاصة الفرس والروم والحبشة كان لها أثر كبير في حياة العرب الجاهلية ، ولعل هذا قد انعكس على لغتهم وأدبهم .

وحين نصل إلى الحياة الاقتصادية فسنرى الدكتور طه حسين يواصل شكّه وزعمه ... ، والقرآن يصف لنا اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الأمم في السورة المعروفة " لِيَلْبِغُوا (١) قُرَيْشٍ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ..." سورة قريش "الآيتان ١ ، ٢" . فكانت إحدى هاتين الرحلتين - الأولى إلى الشام حيث الروم ، والأخرى إلى اليمن حيث الحبشة أو الفرس - آيتين دالتين على حركتهم التجارية وغيرها في المحيط المعيشي .

لقد زعم الدكتور طه حسين أن الشعر الجاهلي يصور العرب أجواداً كراماً مهينين للأموال ، مسرفين في ازدرائها ؛ على حين نجد في القرآن الكريم إلحاحاً في ذمّ الطمع فقد كان البخل والطمع - إذن - من آفات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجاهلية .. أي أن العرب في الجاهلية لم يكونوا كما يمثلهم هنا الشعر أجواداً متلفين للمال ، مهينين لكرامتهم .. "

والحق نقول : إن الشعراء الجاهليين اتخذوا من الجود والكرم - فضائل أو جملة خصال كريمة أسبغوها على مدوحيههم ، فلو كانت هذه المكارم شائعة بينهم لما كان للمدح بها قيمة تذكر فيشكر عليها صاحبها

^١ (اللام هنا لام التعجب كانه يقول اعجبوا لإيلاف قريش ونمتي عليهم في ذلك الوقت ، تفسير الطبري ج ١ ، ص ٥٥٥ .

ولعل كرم حاتم الطائي ، وجود لبيد العامري ، وعنترة بن شداد ،
وجساس بن مرة - يمثل شواهد حقيقية تصادق على ما ذهبنا إليه .
فالشعرُ الجاهلي - إذن - لم يصور العرب كلهم أجواداً ، لأن
الإشارة لهذه الخصال تستلزم شيوع نقيضها في المجتمع الجاهلي كالخلل
والخسة والطمع والجشع ... وهذا ما حدث .

ثم إننا لا ندري : هل فاتته النظر إلى شعر الصعاليك ... ، وكيف
فلسف عروة مشكلة المجتمع العربي ، وهي مشكلة الفقر والغنى في
سخرية من ذلك المجتمع العجيب الذي يحتقر الفقير لا لشيء سوى أنه
فقير ، ويحترم الغني ؛ لأنه غني ، فيقول (١)

فَرَيْتُ لِلْفَنَى اسْمِي ، فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمْ الْفَقِيرُ (٢)
وَأَدْنَاهُمْ ، وَأَهْوَلُهُمْ عَلَيْهِمْ وَإِنْ أَمْسَى لَهُ حَسَبٌ وَغَيْرُ
يُبَاهِلُهُ الْقَرِيبُ وَتَزْدْرِيه حَلِيلَتُهُ ، وَيَقْهَرُهُ الصَّغِيرُ (٣)

إن شعر الصعاليك عكس لنا تردى الأوضاع الاجتماعية ،
والعلاقات السالبة والأحوال الاقتصادية تلك التي يكتوي المجتمع بلهبها
، كما يصور حياة الصعاليك بأنها على قدر كبير من الكرامة والإنسانية ،
وقمة التعاونية ، وهذا عروة القائل عوداً .

وَأَنَّى أَمْرُ مَا فِي إِيَالِي هَرَكَةٌ وَأَنَّى أَمْرُ مَا فِي إِيَالِكَ وَاحِدُ
أَلْهَزَا مَنِّي إِنْ سَمَنْتَ وَقَدْ تَرَى بُوْجْهِي شُعُوبَ الْحَقِّ ، وَالْحَقُّ جَاهِدُ
أَقْسَمُ جَسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَخْشَوْ قِرَاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدُ

(١) انظر : ديوان عروة بن الورد ، دراسة وتحقيق أبي بكر محمد ، ص ٧٩ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢) جاء في ديوان عروة : دعيني .

(٣) جاء في ديوان عروة : يلصيه الندى و

حيث يرى مشاركة الفقراء له في إنائه ، واكتفائه هو بالماء الخالص في أيام الشتاء الباردة ؛ ليوفر لهم طعامهم ، بل يراه تقسيماً لجسمه في أجسام حتى أصبح هزيراً ، لكنه مع ذلك يرى السعادة كلها .
هكذا تخللت حياة العرب الاقتصادية الداخلية من الفساد والاضطراب والفقر ما يجعلنا نقر بأن ما وصل إلينا من شعر يعكس هذه الأوضاع بكل ما فيها .

وأخيراً ننقل للحديث عن لغة الشعر الجاهلي ، وهي ذات وحدة ظاهرة - هي نفس لغة القرآن الكريم - ولو أن هذا الشعر - كما يرى - صحيح لمثل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية ، كما مثل لنا لغة القبائل الشمالية العدنانية ، واللغة الحميرية .

إن " من آثار وحدة اللغة الأدبية - كما يرى الشيخ محمد الخضر حسين المترادفات الفائقة كثيرة ، وهذه الكلمات التي تنقلها من معنى إلى معنى أو معانٍ ، وهذه الألفاظ التي يحق لها أن تنطق في هيئات متعددة . (١) "

عموماً نقول : إن اللغة العربية الفصحى كانت سائدة في الجاهلية ، وأن الشعراء - منذ إشراق العصر الجاهلي - كانوا ينظمون بها أدبهم ، وأنها كانت لهجة قريش التي تعد اللغة الأدبية النموذجية الموحدة ، والتي سادت على جميع لهجات القبائل الموحدة في الجزيرة العربية من عرب شمال أو جنوب ، وقد اتخذها الشعراء لغة رسمية لهم ، مترفعين عن لهجات قبائلهم ..

(١) راجع : نقض كتاب في الشعر الجاهلي ط ١ ص ٩٦ ، مكتبة الإيمان ٢٠١١ م

إنّ فلا داعي للتساؤل عن لغة الأدب الجاهلي طالما عرفنا أن الشعر العربي جاء بلغة عربية فصحي ، حتى يتيسر على جميع القبائل العربية فهمها ومداولتها ، وهنا نضرب مثلاً على ذلك بأنه لو أننا في قطر ما ، به مواطن كثيرة ، لكل موطن لهجة محلية يعبرُ بها ، ولا يفهمها إلا أهله ، ثم ألقى مذيغ الأخبار نشرته بلهجة محلية خاصة بموطن ما ، ربما هي خاصة - حتماً - بينته

صحيح قد يفهمها أهل هذا الموطن الواحد ؛ لكن يتعذر فهمها على أهالي المواطن الأخرى .

أما لو قال المذيغ النشرة باللغة الفصحى لتفهمها جميع مواطني هذا القطر ، بل جميع الأقطار أو الشعوب الناطقة باللغة العربية ، هكذا الشأن في توحيد لغة الأدب الجاهلي .

وعلى كل فإتينا نتخيل لو وصل إلينا الشعر الجاهلي مدوناً بلهجات قبائله لوجدنا باحثينا ودارسينا قد أسندوا أقلامهم على جدار البحث ؛ إذاناً بمغادرة هذا المجال .. ، ناهيك عن أن أبناء القطر ، بل أبناء العشيرة الواحدة فاتهم سيعيشون أرباباً متفرقي الفهم ، موزعي الرأي ، عاجزي القدرة على التفاهم ، لأنه قد تختلفُ اللهجة في الكلمة ، ولربما يتمثلُ بها شاعرٌ دون آخر .

ولنا أن نستلهم العبر من واقع أدبنا المحلي بعد أن نستلهمها من الماضي في لهجة قريش التي سادت على لهجات جميع القبائل منذ أوائل القرن السادس الميلادي ، إذ كان هذا توفيقاً وتمهيداً لأمرٍ عظيم إلا وهو

نزول القرآن الكريم بهذه اللهجة حيث وجدنا جميع القبائل يلتفون حوله ، يتفهمونه ، ويتداولونه ، فيما بينهم ، كما أسلفت الذكر .
 مهما يكن من أمر بعد فإن الشعر الجاهلي كُتب بلغة أدبية موحدة وإن كنا نرى أنه حمل بعض خصائص اللهجات العربية القديمة ، لتظل شاهدة على عصرها ، نذكر منها على سبيل المثال : الطمطائية ، وهي إبدال لام التعريف ميماً ، ولعلها جاءت في قول الشاعر سيف بن ذي يزن حين قاتل الحبشة :

قد علمت ذات امتنع ... إنني إذا أموت كنت
 اضربهم بداً مقلع ... لا أتواقي بأجزع
 واقتربوا قرفاً امتنع

فامتنع من النطع ، وأموت من الموت ، وامقلع من القلع ، وبأجزع

ومنها العنعة وهي لغة قريش ومن جاورهم ، وتميم وقيس وأسد ومن جاورهم ، إذ يجعلون الهمزة أن إذا كانت مفتوحة عيناً فيقولون :
 أشهد عنك رسول الله في " أشهد أنك رسول الله .. "

وفي ذلك سمع الأصمعي (١) الشاعر ذا الرمة ينشد عبد الملك :

أمن ترست من قراء منزلة ... ماء الصبابة من ميثيك مسجوم

ومنها العججة وهو لقب يسنب إلى قضاة قليل : إن العججة في قضاة كالغنة في تميم يبدلون الياء جيماً كقولهم :

المطمون النعم بالمشج

(١) انظر : مجالس ثعلب ج ١ ص ٨١ القاهرة سنة ١٩٦١ م .

وَبِالْفَنَاءِ كَسَرَ الْبَرْجِ
يَقْلَعُ بِالْوَرِّ وَالْمِصْبِ

فبالنظر إلى العشح فإن أصلها مأخوذ من " العشي " حيث قُلبت
الياء جيماً ، وكذلك البرنج و

أيضاً التثنية وهي كسر حرف المضارعة دون تحديد لحرف معين
فيقال : أنا أعلم ، ونحن نعلم ، وهي لقب لقبيلة عربية هي " بهراء " وجاءت
هذه الظاهرة في رجز لشاعر يقول :

لَوَقَلْتُ مَا فِي قَوْمِهِ لَمْ تَيْتُمْ مِمَّ يَفْضُلُهُ فِي حَسَبٍ وَمَيْسَمٍ

وهكذا تتعد الأمثلة الشعرية التي مثلت لهجات القبائل العربية .

ملاك الأمر نقول : إن د. طه - حسين بعوالمه الذهنية والفكرية
لل قضية أخفق في أن يتجنب الإيغال في مسارها المعقدة ، ومسالكها
المتعرجة أو المتشعبة ؛ لتكشف عما يعتورها من خلل ؛ فقدم هامشيات
نقدية غير مقننة ، بينما مثل الآخر مصطفى صادق الرافعي - الذي وهبه
الله عقلاً كبيراً ، إذ لم يعش على هامش عصره فيصبح هملاً أو سدى ؛ بل
ألقى بنفسه في الخضم الواسع من الآداب والثقافات والديانات التي تفاعلت
منصهرة في صهاريج الصراعات - فجاء رده على طه حسين مشكلاً
انخراطاً كلياً في النسق الثقافي والأدبي من جانب .. ، ومدافعاً بوعي
فكري متجرد من التبعية الذهنية الغربية على الجانب الآخر ...؛

وكذلك محمد الخضر حسين ، ومحمد أحمد الغمراوي ، وغيرهما
من علماء الأزهر الذين نقلوا القضية من وهم الاحتمال إلى حقيقة

التواصل الفعال مع تراثنا إنصافاً ، وإحقاقاً للحق ؛ ليمثل تيارهم عودة
النزعات الاستغرابية المضطربة والتهيج المعقد إلى حالة الاتزان.
وغني عن البيان التدليل على أن آراءهم، وما حشدوه من طاقات
عقلية وشعورية -على هذا النحو- صرخة في ضمير الإنسانية ضد
الشعوبية التي عانت كثيراً من التبعية الذهنية والاتكالية والهمود والجمود
والانهزامية والانسلابية .